أبو الحسن علي الحسني الندوي

النبوة والأنبياء
في ضوء القرآن



جده - ص. ب. ٢٠٤٣

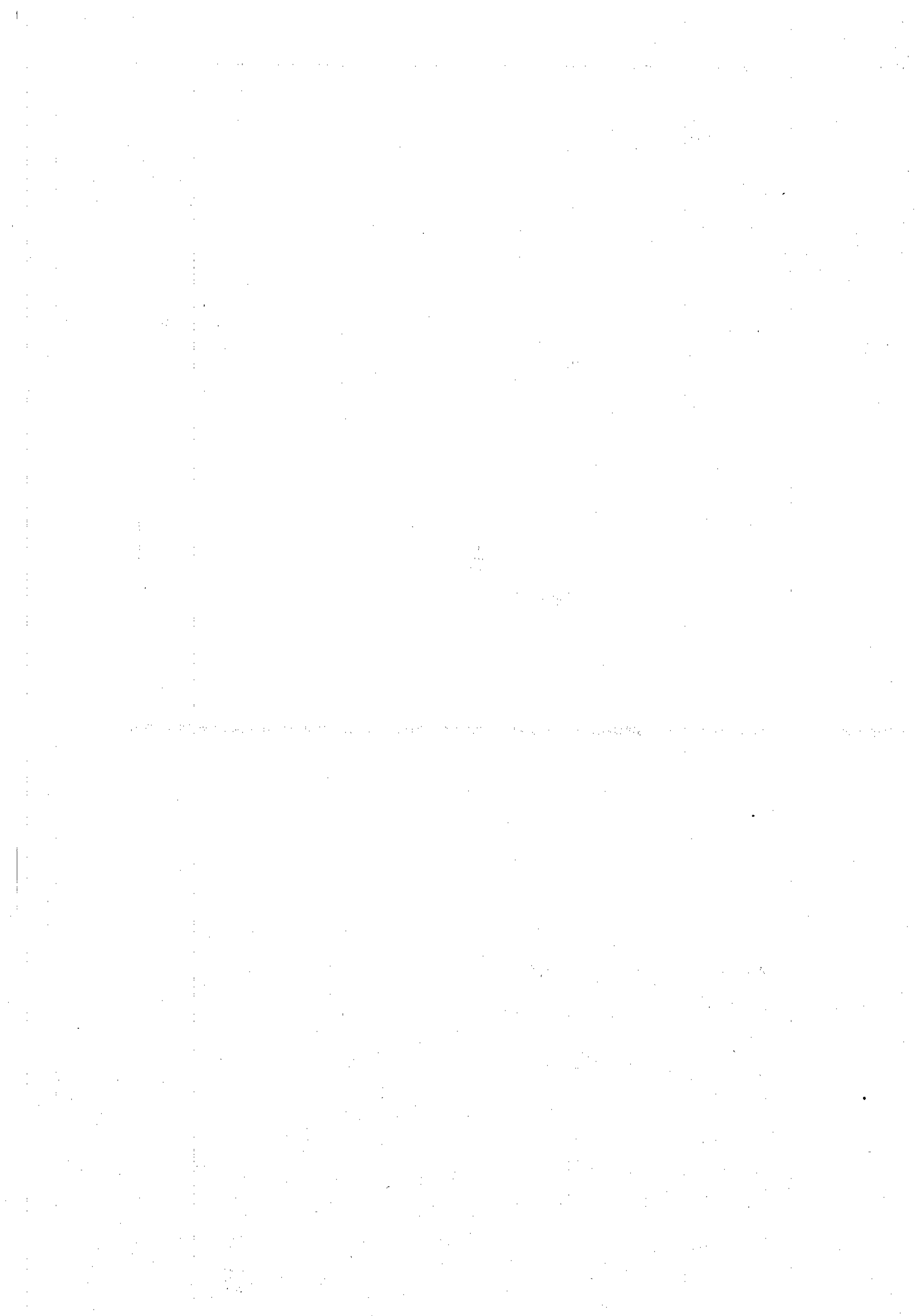
الطبعة الاولى : لكنهؤ الهند ١٣٨٣ هـ

الطبعة الثانية : القاهرة

الطبعة الثالثة : بيروت ١٣٨٧ هـ

النبوة والأنبياء

في ضوء القرآن



بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، أما بعد ، فقد تلقيت في شعبان عام ١٣٨٢ ﻫ برقية من نائب رئيس الجامعة الاسلامية في المدينة المنورة صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز ابن عبدالله بن باز، يدعوني كأستاذ زائر لهذه الجامعة ، ويقترح علي إلقاء محاضرات على طلبتها الذين قصدوا هـذه الجامعة من أنحاء العالم الاسلامي ، وقد قبلت شاكراً هذه الدعوة الكريمة، ورأيت أنها فرصة سانحة يجب أن تنتهز للتحدث إلى هـذه المجموعة الطيبة من الشباب الاسلامي ، التي يتعسر وجودها في مكان واحد، ولغرس معان كريمة في قلوب هذه الناشئة الصافية في بلد طيب يخرج نباته بإذن ربه .

وكان الموضوع الذي آثرته لهـذه المحاضرات « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » ولم يكن موضوعاً مرتجلًا ولا من

سوانح الآراء ، إنما هو موضوع كان يجول في خاطري من زمن طويل،وأرى معالجته والحديث عنه من أهم البحوث والدراسات التي تشتد حاجة الطبقة المثقفة إليها ، وأعتقد أن أقوى سبب انحراف هذه الطبقة الموجهة للشعوب الاسلامية عن الجـــادة ، وتخليها عن روح الاسلام الصحيحة ، وخضوعها الزائد للمفاهيم والقيم المادية المنافية لروح الديانات السماوية، وتمسكها بالأساليب الصناعية والمناهج الفكرية الغربية ، حتى في تفسير الاسلام وفي حقل الدعوة والاصلاح العام ، هو بعدهـا عن منهج النبوة ، وجهلها لقيمتها وفضلها على الحياة والمدنيـة والعقل الانساني ، وشدة حاجة الانسانية في جميع أدوارها إلى قيادتها . وكذلك غفلتها عن سير الأنبياء والرسل وطبائعهم وأخلاقهم .

جاءت هذه الدعوة الكريمة من جهة كريمة ، فأثارت هـذا الشعور الكامن وهيأت الفرصة المناسبة والدوافع النفسية القوية للتفرغ لهذا الموضوع ، الذي لولا هذه الدعوة ولولا هذا الدافع القريب لتأجل إلى وقت آخر،كما تتأجل مواضيع أخرى تتغلب عليها وتشغل عنها حاجات مؤقتة أو أعمـــال رتيبة تملأ فراغ الوقت وتشغل الخاطر ، ورأيت أن خير مكان للحديث عن هذا الموضوع الجليل هو المدينة المنورة التي حصل فيها آخر اتصال السماء بالأرض لهداية البشرية عن طريق الوحي والنبوة .

وكتبت اكثر هذه المحاضرات في رمضان (١٣٨٢ هـ) في

قريتي الصغيرة [1] المنعزلة البعيـدة عن كل مكتبة ، و اعتمدت فيها على القرآن الكريم ، وأسستها على دراسته والتدبر فيـه ، وكنت أطلب أحياناً بعض المصادر التي أنقل منهـــا بعض العبارات – شرحاً لفكرة أو تأييداً لقول – من مكتبة ندوة العلماء العظيمة في لكهنؤ،وجاءت ست محاضرات لكل محاضرة عنوان خاص ، وزدت إليها شيئاً يسيراً .

وصلت إلى المدينة المنورة في آخر شوال (عام ١٣٨٢ ﻫ) وبدأت المحاضرات في ذي القعدة وكانت تلقى مرتين في الاسبوع في قاعة المحاضرات في الجامعة الاسلامية بعد صلاة العشاء ، يمهد لها الأستاذ عطية محمد سالم مدير الشؤون التعليمية في الجامعـة ويعلق عليها فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز نائب رئيس الجامعة ، ويحضرها – غير الطلبة – عدد من أعيان المدينة ورجال الثقافة وأساتذة الجامعة .

وها نحن أولاء ننشر هذه المحاضرات مجموعة في كتاب ، لا نزعم أنها بحوث مبتكرة أو فتح جديد في العلم والتحقيق ، ولكنها إنارة فكر ، وإثارة شعور ، وخطوط عريضة لبحث أكثر تركيزاً ، وكتاب أوسع مادة ، وقد تعمدت الأسلوب الأدبي والاجتماعي الخفيف،وتجنبت أسلوب علم الكلام والعقائد

---

١ – زاوية جدنا الكبير الشيخ علم الله الحسني النقشبندي في راي بريلى.

العميق الثقيل ، ولكن رغم ذلك قـــد احتوت على حقائق وإشارات تطلب التفكير العميق ، وتستدعي البحث الدقيق، في المجتمع الاسلامي المعاصر ، الذي هو في طور انتقال وتصميم ، ويواجه صراعاً عنيفاً بين القيم والمفاهيم ، والله يهـدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

المجمع الاسلامي العلمي ابو الحسن علي الحسني الندوي
ندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند) لخمس خلون من محرم الحرام
١٣٨٣ هـ

المحاضرة الأولى

النُّبُوَّة

حَاجَة الإنسانيّة إليها وَفضْلها عَلى المدَنية

حديث من وحي المكان :

سادتي ! إن أليق حديث بهـذا المكان الذي نجتمع فيه ، حديث عن النبوة ، حاجة الانسانية إليها وفضلها على المدنية ، وعن السادة الذين أكرمهم الله بها ، وعن عظيم منزلتهم عندالله، وكبير فضلهم عن الخلق ، وعميق أثرهم في الحياة ، وعن إمامهم وخاتمهم الذي خصه الله بالرسالة الأخيرة والنبوة العامة الدائمة ، والإمامة الخالدة والشريعة الباقية والكتاب المحفوظ ، وحصر سعادة الانسانية على اختلاف طبقاتها وعصورها على الايمان بـه واتباعه ، وآثر هـذا البلد الطيب بأن يكون مهجره ومثواه الأخير ، وهنا حصل آخر اتصال السماء بالأرض للوحي والرسالة،

وعلى من يمنح فرصة الحديث في هذا المكان الكريم وتساق إليه هذه الكرامة أن يتقي الله ويستحي أن يكون له حديث آخر غير هذا الحديث الذي هو من وحي المكان ، وفيض الايمان واستجابة لشعور الحسن والإحسان .

ولما نزلنا منزلاً طله الندى أنيقاً وبستاناً من النور حالياً
أجد لنا طيب المكان وحسنه منى،فتمنينا،فكنت الأمانيا

مهمة الجامعة الاساسية :

ومهمة كل مدرسة تقوم في الاسلام — فضلًا عن أن تقوم في مدينة الرسول ﷺ — أن تعنى قبل كل شيء بفهم نعمة النبوة التي ما أنزل الله نعمة أعظم منها ، وتعني بقدرها وشكرها وتجتهد أن تكون من أنصارها ودعاتها، وأن تنضم إلى معسكرها ولوائها في معترك الحياة الذي انتشرت فيه ألوية الجاهلية ورايات الردة والثورة ، وأن تنتصر لها في مجالات الحياة كلها ، من فكرية واعتقادية، إلى عملية وتطبيقية، ومن خلقية واجتماعية، إلى مدنية وسياسية ، وأن يكون شعار أبنائها ومتخرجيها الدائم وهدفهم الأسمى إيثار النبوة ومناهجها على كل فلسفة ومنهاج وعلى كل منحى وطريق ، وعلى كل أسلوب من التفكير وعلى كل لون من الحياة ، وطراز من المدنية وقسم من أقسام المجتمعات البشرية إن هذه المهمة الأساسية هي أهم وأقدم من دراسة جميع العلوم والمواد التي تعنى المدارس والجامعات

الإسلامية بدراستها والتوسع فيها ومن الشعارات التي تدين بها وتهتف ، فان المعركة الخالدة الحاسمة الحقيقية لم تزل ولا تزال بين الجاهلية والنبوة – التي يمثلها الإسلام في هذا الزمان – وكل معركة غيرها معركة شكلية أو معركة داخلية ، كما قد يتقاتل أفراد أسرة واحدة على شيء تافه ، أو كما قد يتصارع الأطفال لقصر نظرهم ، أما المعركة المبدئية الدائمة فهي معركة الجاهلية والنبوة .

لذلك أيضاً كان الحديث أولى بأن يكون الحديث الأول في الجامعة الاسلامية التي تقوم في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ظئر الاسلام ومأزر الايمان ومهبط الوحي ، ونهاية المطاف في رحلة النبوة الطويلة وتاريخها السامي .

حاجة العصر الى هذا الحديث :

لقد اشتدت الحاجة الى هذا الحديث في كل مكان ، وفي كل مجمع علمي ، وفي كل جامعة كبيرة ، اشتدت الحاجة إليه في جامعات أوروبا وفي ندواتها العلمية وفي هيئة الأمم ، وفي منظمة الثقافة العالمية ، فليس شقاء الانسانية وأزمة المدنية الحاضرة – مع تملكها لجميع أسباب السعادة والسلام والرفاهية والهناء – إلا بثورة قادتها على تعليمات النبوة والأنبياء وتخطيطهم للمدنية والحياة على غير الأسس التي جاء بها الأنبياء والمرسلون ، واستغنائهم – وبالأصح استكبارهم – عن ما أكرم الله به النبي

العربي الأمي وقولهم بلسان حال او مقال : أبشر يهدوننا؟! أأمي جاء يعلمنا ؟! أفقير يحاول إسعادنا ؟! أبدوي يريد أن يمدننا ؟!

ولكننا إذا عجزنا بسوء الحظ – أيها السادة – أو لم تسمح الظروف بعد عن أن نتحدث بهذا الحديث في جامعات أوروبا وأمريكا وفي جامعات آسيا المدنية فلا يجوز أن نعجز عنه في الجامعة الاسلامية في المدينة المنورة ، وكانت المدينة دائماً حقل النواة الكريمة، والبلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه ، وتقول كلمتها فيردد صداها العالم .

النظر الى النبوة والانبياء من خلال القرآن :

لقد نظر علم الكلام أو علم التوحيد – وأرجو عدم المؤاخذة – إلى النبوة والأنبياء بنظر قاصر محدود ، واعتبرها عقيدة جامدة محدودة لا صلة لها بالحياة إلا في دائرة ضيقة محدودة من العقائد، ولعلم التوحيد بعض العذر في وضعه العلمي المحدود ورسالته التعليمية الخاصة . إذن يجب علينا أن ننظر إلى النبوة والأنبياء من خلال القرآن وبمنظار القرآن ، ونستعرض كتاب الله الحكيم لنعرف مداها وآفاقها الواسعة ، وأعماقها الغائرة وجذورها العميقة في الحياة الانسانية ، وسيطرتها على العقول والنفوس ، والأخلاق والميول ، وتأثيرها في تكوين السير وتشكيل المجتمعات ،

وقيادتها للمدنيات ، بل تأسيسها لحضارة خاصة متميزة في كل شيء ، موازية للجاهلية ، مقابلة لها على طول الخط .

حديث أثير حبيب :

إننا نقرأ القرآن لهذا الغرض فتطالعنا قطع ونماذج وصور لم يخلق الله أجمل منها في هذا الكون ، وهي أجمل ما في مجموع الصور البشرية بالإطلاق ، ونرى أسلوب القرآن في الحديث عنهم أسلوباً يتدفق بالحياة ، ويفيض بالبشر ، وينم عن الحب والايثار ، وكأنه حديث أثير حبيب عن أثير حبيب ، فليتسع وليتشعب وليطل وليتنوع ، ولا يتوقف ولا ينقطع ، وكل من رزق الذوق السليم والشعور بالجمال وعاطفة الحب ، استلذ بهـذا الحديث وتذوق هذا الأسلوب ، إقرؤوا معي قوله تعالى :

« إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين ، شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم ، وآتيناه في الدنيا حسنة ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين[1] » .

واقرؤوا معي كذلك قوله تعالى :

«وتلكَ حُجتنا آتيناها إبراهيمَ على قومِه ، نرفعُ درجاتٍ مَنْ

---

١ ـ النحل ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٢ .

نشاءُ ، إن ربكَ حكيمٌ عليمٌ . ووهبنا له إسحقَ ويعقوبَ كلاً هدَينا،ونوحاً هدينا من قبلُ ، ومن ذريتهِ داودَ وسليمانَ وأيوب ويوسفَ وموسى وهارونَ ، وكذلك نجزي المحسنين. وزكريا ويحيي وعيسى وإليـــاس كلٌ من الصالحين. واسمعيلَ واليسعَ ويونسَ ولوطاً وكلا فضلنا على العـالمين ، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم . ذلك هُدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم مـا كانوا يعملون.أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين[1]» .

صفوة الخلق والمثل الكامل للانسانية :

ويذكرهم القرآن تارة بالاصطفاء والاجتباء ، وطوراً بالحب والرضا ، وتارة بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقيـة والعملية ، كل يدل على أنهم صفوة الخلق ، والمثل الكامل للانسانية ، ومن أقوى البشر وأجدرهم بحمل رسالات الله ، ودعوة الخلق الى الله «اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَـه[2]»فيقول عن إبراهيم « ولقد آتينا ابراهيمَ رُشْدَهُ من قبلُ وكنّا به

---

١ ـ الانعام ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .
٢ ـ الانعام ١٢٤ .

عالمين[1]» ويقول «واتخذ الله إبراهيم خليلًا»[2] ويقول «وتركنا عليه في الآخرين، سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين[3]» ويقول: «إن إبراهيم لحليم أواه منيب[4]» ويقول عن اسمعيل «وكان عند ربه مرضياً[5]» ويقول عن موسى «واصطنعتكَ لنفسي[6]» ويقول «وألقيت عليكَ محبةً مني ولتُصنَعَ على عيني[7]» ويقول «إني اصطفيتُكَ على الناس برسالاتي وبكلامي[8]» ويقول عن داود «واذكر عبدنا داودَ ذا الأيدِ إنه أوّاب[9]» ويقول عن ابنه سليمان «نعم العبدُ إنه أواب[10]» وكذلك يقول عن النبي أيوب، ويذكر جماعة من الأنبياء المكرمين، فيتحدث عنهم في اختصاص وايثار، وحب وإكرام، وينعتهم بأفضل النعوت «واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار، إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار، وإنهم عندنا لمن المصطفَيْنَ الأخيار، واذكر إسمعيلَ واليسعَ وذا الكفلِ وكلٌ من الأخيار[11]».

---

١ - الأنبياء ٥١ .

٢ - النساء ١٢٥ .

٣ - الصافات ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١

٤ - هود ٧٥ .

٥ - مريم ٥٥ .

٦ - طه ٤١ .

٧ - طه ٣٩ .

٨ - الأعراف ١٤٤ .

٩ - ص ١٧

١٠ - ص ٣٠ .

١١ - سورة ص ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨ .

وقد استرسلت في هذا الحديث – والحديث لذيذ – مع معرفتي أنكم تقرؤون القرآن وتدرسونه دراسة علمية ، وليس ما أتلوه عليكم جديداً عليكم أو غريباً عنكم ، وإنما فعلت ذلك لأستحضر لأذهانكم منزلة الأنبياء عند الله ومقامهم الرفيع الحبيب ، ولهج القرآن بذكرهم، ووصفهم بأفضل الصفات وأزكى النعوت ، وأكرم الأخلاق ، وأشرف السجايا ، وأغنى المواهب .

تصوير النبوة والمثل الحكيم :

ما مركز النبوة والأنبياء في هذه الحياة التي تعتمد – في استقاء معلوماتها وقضاء أغراضها – غالباً على الحواس الانسانية والعقل الموهوب ، وتجد فيها الكفاية والغناء والأمانة والوفاء ؟ وما هي ميزة الأنبياء بين جماعات العلماء وطوائف العقلاء ؟ ولماذا لهم الحق أن يتحدثوا – هم وحدهم – عن أشياء، ويتقدموا بأنباء لا تتناولها الحواس القوية والعقول النافذة ، وهم جميعاً أبناء بيئة واحدة، وواقفون على صعيد واحد ؟ لماذا يرون ما لا يراه العمالقة من أقرانهم، والنبغاء العبقريون من معاصريهم وجيرانهم ثم يأتي ذلك مثل فلق الصبح ، وتتحقق نبواتهم .

هذا سؤال طبيعي ساور النفوس عند كل بعثة نبوة جديدة، وكان لا بد من مواجهته يوم أكرم رسول الله ﷺ بالنبوة وأمر بالإنذار وتبليغ الرسالة، وكان الموقف الذي وقفه خاتم الرسل ﷺ

من هـــذه المشكلة معجزة كبيرة من معجزاته الخالدة في الحكمة والدعوة والحجة والبيان .

عاشت الأمة العربية – وسكان هذا الوادي بصفة خاصة – مدة طويلة بعيـدة عن المفاهيم الدقيقة ، والمصطلحات العلمية ، والبحوث اللاهوتية ، ولكنها فاقت وتميزت بسلامة فهمهـا وسرعة إدراكها ، وحبها وخضوعها للواقع ، وعلى ذلك اعتمد الرسول ﷺ في شرح مركز النبوة والنبي في هـــذه الحياة ، وتبريرحقه في الإنذار والانباء، ومخالفة المألوف المعروف المشاهد بالعيان ، والإخبار بما لا يراه الانسان ، فكان أبلـغ من ألف دليل يستند إليه أئمة الكلام وعلماء اللاهوت .

وكانت جميـع المراحل التي اجتاز بها الرسول الأعظم ﷺ وجميـع الوسائل التي اتخذها واستخدمها في هذه المهمة المقدسة الدقيقة مطابقة للطبيعة والبيئة ، وهكذا الأنبياء لا يلتجئون – في أداء مهمتهم وتبليـغ رسالتهم إلى الصناعـة والتكلف ، والاستعارة والاستيراد ، ويكونون من التافه الموجود الشيء العظيم المفقود .

لم يكن ذلك عصر الصحافة والإذاعة ، وعصر آلات نشر الصوت وتضخيمه ، فما هو السبيل إلى « حشر » سكان الوادي إلى مكان مخصوص في زمن مخصوص، وما هو السبيل إلى السيطرة على عقولهم ونفوسهم حتى ينفضوا أيديهم من أشغالهم وملذاتهم ،

ويخفوا إلى مكانه فزعين مسرعين ؟

كان الرسول عربياً يعرف عادات العرب وتقاليدهم ، وشعاراتهم وتأثيرها في نفوسهم ومجتمعهم فاستعان بذلك في سبيل هذه الغاية التي لا غاية أفضل منها .

اعتاد العرب إذا أحس أحد منهم بخطر ، أو بعدو يريد أن يفاجىء ويأخذ القوم على غرتهم ، أو بعدو كامن قاعد بالمرصاد، قد غفل عنه أهـــل البلاد ، أن يرتقي أحدهم قمة جبل أو ربوة ويصرخ بأعلى صوته « يا صباحاه » فيفزع القوم ويأخذون عدتهم ويخرجون على بكرة أبيهم ، لمواجهة الخطر الداهم والعدو المهاجم .

وما هو هذا الخطر الذي كان يقلق مضاجعهم ويحول بينهم وبين راحاتهم ولذاتهم وما مدى تأثيره وضرره في حياتهم ؟

عدو يقتل منهم الكثير ، وينهب أموالهم ويستاق إبلهم وماشيتهم ، ويلحق بهم الأضرار .

هانت هذه الأخطار والأضرار – على ضخامتها وواقعيتها– في عيون الأنبياء والرسل الذين عرفوا خطر الجهـل لصانع هذا الكون ومدبره وصفاته الحقيقية وحقوقه ، وخطر الحياة الجاهلية التي كان يعيشها أهل ذلك العصر وسكان هذا الوادي ، وضرر المعاصي والأخلاق التي اتسم بها هذا المجتمع الجاهلي « يعبدون

الأصنام ، ويأكلون الميتة ، ويأتون الفواحش ، ويقطعون الأرحام ، ويسيئون الجوار ، ويأكل القوي منهم الضعيف »[1] فرأى هذا العـــدو ، الذي يعيش في نفوسهم وفي عقائدهم وأخلاقهم ، أضر وأفتك من كل عدو من الخارج ، وإن هذا الخطر - الذي نبـع وانبثق من داخلهم ، أعظم من كل خطر عرفوه في حياتهم الجاهلية الطويلة ، وفي مجتمعهم العربي القبلي ، وأن عداوة نفوسهم أشد وأدق من عداوة كل قبيلة منافسة ، ومن كل جيش محارب ، وأن أسلوب حياتهم يثير سخط الله القادر القاهر الذي لا يرضى لعباده الكفر ولا يحب في الأرض الفساد .

فخرج ﷺ وصعد على جبل الصفا – وهـو أقرب الجبال إليهم – ونادى بأعلى صوته « يا صباحاه » وقد شهد هذا الوادي بأنه كان أصدق صوت في أصدق مناسبة ، وإنه أليق وضع لهذا الإنذار البليـغ ، والصيحة المفزعة .

وقد سمع أهل مكة الصيحة المعروفة المألوفة ، تخرج من فم أصدق رجل عرفوه في بلدهم وسموه « الصادق الأمـــين »

---

١ - هذا الوصف للمجتمع الجاهلي العربي ، الذي كانت فيه بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماخوذ من حديث جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي ملك الحبشة (انظر سيرة ابن هشام القسم الاول ص ٣٣٦ طبع الحلبي) وفي الاصل كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الاصنام ..الخ .

وفهموا معناها ومطالبها ، وأمامهم سلسلة طويلة من التجارب والحوادث فلم يتأخروا في تلبية هذا النداء « فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله[1] ».

« فقال رسول الله ﷺ : يا بني عبد المطلب ! يا بني فهر ! يا بني كعب ! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني؟[2] »

كان القوم الذين خاطبهم الرسول العربي ﷺ ، ووجه إليهم هذا السؤال أميين غير مثقفين ، لم يدرسوا الفلسفة وعلوم المنطق ، ولم يألفوا التعمق والتدقيق ولكنهم — كما قلت — كانوا واقعيين عمليين ، رزقهم الله النصيب الأوفر من سلامة الفهم وسرعة الإدراك ، فاستعرضوا الواقع واستعرضوا المحيط الذي وقف فيه هذا الخطيب النذير واستعرضوا وضعه الطبيعي .

رأوا رجلًا جربوا عليه الصدق والأمانة والنصيحة وحب الخير ، قد وقف على جبل يرى ما أمامه وهو الذي اشترك فيه مخاطبوه ، وينظر إلى ما وراء هذا الجبل والسفح المقابل ، فعرفوا من غير شك وتأمل طويل ، أن له الحق أن يتحدث عما في السفح المقابل من عدو رابض وخطر كامن ، وليس لهم حق — وقد حال الجبل بينهم وبين السفح المقابل — أن يكذبوه وينفوا رؤيته على أساس انهم لا يشاركونه في هذه المشاهدة ،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٣٨ .   (٢) ايضاً .

فقد فرق الجبل القائم بين وضعهم ووضع الخطيب النذير ، وأعطاه من فرصة المشاهدة وحق الشهادة ما لم يعطهم .

وكانوا عقلاء منصفين ، شجعاناً صادقين فقالوا : « نعم » !

وقد نجح رسول الله ﷺ بحكمة النبوة التي خصه الله بها ، وبلاغته العربية التي أكرمه الله بها . وقد صور لهم مركز النبوة والأنبياء الفريد الدقيق ، ووضعهم الشاذ الذي يستطيعون به أن يشاهدوا ما لا يشاهده أقرانهم وأبناء جنسهم وعصرهم ، ويشهدوا بما لا يشهد به المصلحون والزعماء عادة ، فقد وقفوا على قمة جبل من النبوة يطلون منها على الجانبين، الجانب الحسي بحكم النبوة التي يكرمهم الله بها ، والاتصال بعالم الغيب تحت الإرادة الآلهية « قُلْ إنما أنا بشرٌ مثلُكم يوحى إليّ[1] » .

وليس لأذكى إنسان ، وأعظم عالم ، وأكبر عاقل أن يكذبهم وينفي مشاهدتهم على أساس أنه لا يشاركهم في هذه المشاهدة ، ولا يرى ما يرونه ، كما لا يجوز لمن وقف في سفح الجبل أن يكذب من قام على قمته وأخبر بما وراء الجبل وتحدث عما وراء الأكمة .

فاذا حاجهم وخاصمهم أسير لحسه قالوا محتجين مستغربين

---

(١) الكهف ١٢٠ .

« أتحاجّوني في الله وقد هدانِ[1] »وكان العرب الأميون أعقل – في هذه المرحلة البدائية – من الفلاسفة والحكماء الذين كذبوا أخبار الرسل وشكوا في الحقائق التي جاؤوا بها على أساس عدم مشاهدتهم واطلاعهم « بل كذبوا بما لم يحيطو بعلمه ولما يأتهم تأويله[2] » .

ولما تمت هذه المرحلة الطبعية العقلية التي كان لا بد منها ، تقدم الرسول ﷺ خطوة ثابتة ودخل في المرحلة الثانية ، المرحلة النهائية .

فقال : « فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » أنذرهم بالخطر الحقيقي الدائم الذي يهددهم والذي هو طبيعة هذه الحياة التي يحيونها ، والعقائد التي يدينون بها والأصنام التي يعكفون عليها ، والعادات الظالمة والأخلاق الجاهلية التي يتمسكون بها ، وبالاختصار هذه الجاهلية الجهلاء التي يعيشون عليها ، لا إيمان ، ولا علم ، ولا عدل ، ولا تقوى .

إن طبيعة هذه الحياة هو الفساد الشامل في المجتمع، والمعيشة الضنك، والقلق النفسي، والعذاب الداخلي في هذه الحياة « ظهرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كسبتْ أيدي الناسِ ليذيقهم بعض

---

١ – الانعام ٨٠.　　　٢ – يونس ٣٩ .

الذي عملوا لعلهم يرجعون[1] » « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون[2]».

والعذاب الدائم بعد هذه الحياة الذي يهون ويصغر أمامه كل عذاب وألم « ولعذاب الآخرة أشق[3]» « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »[4] « ولعذاب الآخرة أخزى[5]».

لقد اطلع العلماء والفاحصون على خواص الأدوية ، وعرفوا كثيراً من طبائع الأشياء والقوى المودعة في الموجودات ، وكونوا العلوم والمعلومات التي انتفع بها الناس وشكروا أصحابها واعترفوا بفضلهم ، وتفرد الأنبياء بمعرفته ذات الله وصفاته وأحكامه ومرضاته ، وبخواص العقائد والأعمال والأخلاق ، صحيحها وسقيمها وصالحها وفاسدها وما تجر وتستتبع من سعادة وشقاء في الدنيا ، وثواب وعقاب ، وجنة ونار في الآخرة ، وخصهم الله — بقدر ما يريد — بعلم ما يكون بعد هذه الحياة ، وفي ذلك العالم من حشر ونشر وإنعام وعذاب ونعيم وجحيم .

« عالمُ الغيبِ فلا يُظهِرُ على غيبِه أحداً إلا مَن ارتضى مِن رسول[6]».

---

(١) الروم ٤١ .

(٢) السجدة ٤١ .

(٣) الرعد ٣٤ .

(٤) ـ طه ١٢٧ .

(٥) حم السجدة ١٦ .

(٦) الجن ٢٧ .

لقد وقفوا عليهم السلام على جبل النبوة يشرفون منها ــ بقدر ما يريد الله ــ على عالم الغيب والشهادة ويخبرون بما يهجم على هذه البشرية وعلى هذه المدنية في المستقبل القريب والبعيد ، وما يكمن لها من خطر وضرر ، ثم ينذرون قومهم شفقة وإشفاقاً وحباً واخلاصاً ، فاذا نازع منازع هذا الحق الطبيعي العقلي وهذه البداهة وشك أو شكك في مركزهم قالوا في نصيحة وإخلاص وتألم وإشفاق :

« قُلْ إنما أعِظُكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد[1] » .

الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة :

لذلك يلح القرآن على أن الأنبياء هم الأدلاء على ذات الله وصفاته الحقيقية ، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة التي لا يشوبها جهل ولا ضلال ولا سوء فهم ولا سوء تعبير ، ولا سبيل الى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم ، لا يستقل بها العقل ، ولا يغني فيها الذكاء ، ولا تكفي سلامة الفطرة ، وحدة الذهن والإغراق في القياس ،

---

(١) سبأ ٦ .

والغنى في التجارب ، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة ، وهم أهل الصدق وأهل التجربة ، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق كذلك «الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله[1]»وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم « لقد جاءت رسل ربنا بالحق[2] » فدل على أن الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى وعلم مرضاته وأحكامه والعمل بها ، الذي تمكنوا به من الدخول في الجنة والوصول إلى دار النعيم .

وقد ختم الله تعالى سورة جليلة من سور القرآن وهي سورة الصافات وقد نفى فيها ضلال المشركين وسوء اعتقادهم ونسبتهم إلى الله ما هو منه بريء فقال في آخر السورة « سبحان ربكَ ربِّ العزة عما يصفونَ وسلامٌ على المرسلين والحمد لله ربِّ العالمين[3] »والآيات الثلاث حلقات متصلة بعضها ببعض، فلما نزه الله نفسه العلية مما يتفوه به المشركون، ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتقديس الكاملين ، والوصف الصحيح البليغ ، وسلم وأثنى عليهم لأنهم هم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق ، وفي الوصف الصحيح الصادق ، وكانت بعثتهم منة على الخلق ، بالخالق ، وفي الوصف الصحيح الصادق ، وكانت بعثتهم منة على

(١) الاعراف ٤٢ . (٢) ايضاً ٤٢ .
(٣) الصافات ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ .

الخلق ، ونعمة على الانسانية ، ومن مقتضيات الربوبية الرحيمة الحكيمية ، فختم كل ذلك بقوله « والحمد لله رب العالمين[1]».

ضلال الفلسفة اليونانية وسر شقائها وخيبتها :

إذن قد ضل وتعب وجاهد في غير جهاد من أراد معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة وصفاته وأسمائه الحسنى ، وما بينه وبين هذا العالم من صلة وكيفية إحاطته بـه ، وقدرته عليه ونفوذ أحكامه فيه عن غير طريق الانبياء والمرسلين ، واعتمد في ذلك على عقله وعلمه وذكائه وإلمامه ببعض العلوم والصنائع ، ونجاحه في بعض المحاولات العلمية وإنتاجه الضعيف المتواضع أو العظيم الضخم في بعض مجالات علمية ، وحق عليهم قوله تعالى « ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون[2]»

وهذا سر ضلال الفلسفة الاغريقية الالهية وأقطابها ونوابغها، فقد غرهم ذكاؤهم وعلومهم وآدابهم وشعرهم الخصب الغني ، وملاحمهم العظيمة التي نظموها ، ونبوغهم في علوم الرياضة

---

(١) ص ١٨٢ .
(٢) آل عمران ٦٦ .

والهندسة ، والاقليدس والفلسفة الطبعية ، والنجوم والفلكيات فخاضوا في الالهيات وفي موضوع الذات والصفات والخلـــق ، والابداع، فجاؤابالسخيف المرذول وبالمتهافت المتساقط وبالمتناقض المتضاد من الآراء والأقوال والتحكمات والتخمينات التي صدق حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في وصفها بقوله ؛

« ظلمات فوق ظلمات ، لو حكاه الإنسان عن منـام رآه لاستدل على سوء مزاجه، أو لو أورد جنسه في الفقهيات التي قصارى المطلب فيها تخمينات لقيل إنها ترهات ، لا تفيد غلبات الظنون [1] » .

وقال في موضع آخر « لست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع ، فضلًا عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم في المعقولات ؟ [2] » .

وكذلك قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمة الله عليه :

فيقول معلقاً على كلام الفلاسفة والحكماء: «ليتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل، كيف يتكلمون في غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردوداً ، والباطل الذي يعلم بطلانه بالضرورة مقبولاً ، بكلام فيـــه تلبيس

(١) تهافت الفلاسفة ص ١٠٥ .   (٢) أيضاً ص ١٢٤ .

وتدليس [1] » .

وحق عليهم قوله تعالى « أَشَهِدوا خَلقَهم؟ ستُكتب شهادتُهم ويسئلون [2] » وقوله « ما أشهَدتهم خلقَ السموات والأرضِ ولا خلقَ أنفسهِم وما كنت متخذ المضِلين عضداً [3] » .

عثرة الفلسفة التي بدأت في العصر الإسلامي :

وقد تأثرت فلسفتنا الإسلامية – مع الأسف – التي نشأت لمحاربة الفلسفة اليونانية الملحدة بنفس نزعتها ، وهي البحث التفصيلي في قضايا ليس عند الإنسان مبادئها ومقدماتها، وتسربت إليها هذه الروح الفلسفية العاتية التي تتعدى حدودها ولا تعرف قدرها ، فجاءت بالتدقيق والتقشير في مسائل الذات وتأويل الأسماء والصفات وتناولوه بالتشريح والتجزئة والتحليل، كأنهم في معمل كيماوي ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

انفراد الانبياء واختصاصهم بالعلم النافع المنجي :

تكفل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وانفردوا بالعلم

---

١ ـ منهاج السنة ج ٣ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول في الحاشية ص ٢٧٢ .

٢ ـ الزخرف ١٩ .　　　٣ ـ الكهف ٥١ .

النافع وبالعلم الذي لا سعادة للإنسان ولا نجاة له بغيره، وهو العلم الذي يعرف به الإنسان خالقه وفاطر هذا الكون، ومدبر هذا العالم، وصفاته العالية، والصلة التي بينه وبين عبده، وموقف الإنسان في هذا العالم وموقفه من ربه، ومبدأه ومصيره وما يرضيه تبارك وتعالى وما يسخطه، وما يشقي الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده، وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه، وجزاءها وما يترتب على ما يصدر منه من قول واعتقاد وعمل من الثواب والعقاب والنتائج البعيدة الطويلة المدى، وهذا هو العلم الذي يستحق أن يسمى «علم النجاة» والأنبياء مع سمو مداركهم، وصفاء حسهم وكونهم على الجانب الأعلى من الذكاء والنبوغ الفطريين لا يتدخلون في العلوم السائدة في عصرهم ولا يزعمون لهم فيها كعباً عالياً ولا يداً طولى.

إنما ينقطعون ويتخصصون لما بعثوا له وأمروا به وتوقفت عليه سعادة البشرية ويكلون هذه العلوم إلى أصحابها.

مصير الأمم المتمدنة الراقية التي استغنت عن علم الأنبياء:

وقد كانت الأمم المتمدنة الراقية التي بلغت أوج المدنية والذكاء والإنتاج العلمي في عصرها، في حاجة إلى هذا العلم الذي يحمله الأنبياء وينفردون به بين الخلق، حاجة الغريق إلى قارب النجاة وحاجة المريض المشرف على الهلاك إلى الدواء الأكسير، وكان أفرادها بالنسبة إلى هذا العلم – مهما علا كعبهم في العلم

والمدنية — جهالاً أميين وفقراء مفلسين ، وأطفالاً صغاراً .
وكانت على خطر — رغم كل فتوحها العلمية وازدهار المدنية — إذا جهلته أو رفضته ، وقد وقعت أمم متمدنة راقية غنية في العلوم والآداب التي يضرب بها المثل في الذكاء والعبقرية فريسة الإنكار والاستكبار والإعجاب بنفسها والإدلال بعلومها وصنائعها ، ونظرت إلى ما جاء به نبي عصرهم بعين الازدراء والاحتقار ، وزهدت فيه واستصغرته ، فذهبت ضحية هذا الغرور وهذه السفاهة المصورة بالذكاء وقصور النظر ، الملقب حينئذ ببعد النظر والنقد العلمي ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً .

مثل العلم الذي يجيء به الانبياء مع علوم البشر وصناعاتهم :

إن الفرق الواضح الذي بين علم الأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء أيها الأخوان ، إنما يتجلى بوضوح في قصة لعلكم سمعتموها ولكن لعلكم لم تطبقوها على هذا الفرق ولم تستخرجوا منها هذه الحكمة الرائعة ، وكم ضاعت أمثال حكيمة وقصص ذات مغزى عميق ، وإليكم معذرتي فإن القصة تتصل بطائفتكم معشر التلاميذ والطلبة .

يحكى أن فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينة للنزهة في

البحر أو للوصول إلى البر ، وكان في النفس نشاط وفي الوقت سعة، وكان الملاح المجدف الأمي خير موضوع للدعابة والتنادر، وخير وسيلة للتلهي وترويح النفس ، وخاطبه تلميذ ذكي جريء وقال يا عم ماذا درست من العلوم ؟ قال ولا شيء يا عزيزي ! قال أما درست علوم الطبيعة يا عمي ؟ قال كلا ولا سمعت بها ! وتكلم أحد زملائه، وقال: ولكنك لا بد درست علم الأقليدس والجبر والمقابلة ! قال وهذا أغرب ، وتصدقون أني أول مرة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة ، وتكلم ثالث « شاطر » فقال ولكني متأكد بأنك درست الجغرافية والتاريخ ؟ فقال وهل هما اسمان لبلدين أو علمان لشخصين ؟ وهنـــا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة وعلا صوتهم بالقهقهة ، وقالوا مـا سنك يا عم ؟ قال أنا في الأربعين من سني ! قالوا لقد ضيعت نصف عمرك يا عمنا ، وسكت الملاح الأمي على غصص ومضض وبقي ينتظر دوره ، والزمان دوار .

وهاج البحر وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب والأمواج فاغرة أفواهها لتبتلعها ، واضطرب الشباب في السفينة وكانت أول تجربتهم في البحر وأشرفت السفينة على الغرق وجاء دور الملاح الأمي فقال في هدوء ووقار ، ما هي العلوم التي درستموها يا شباب ؟ وبدأ الشباب يتلون قائمة طويلة للعلوم والآداب التي درسوها في الكلية ويتوسعون فيهـــا في

الجامعة من غير أن يفطنوا لغرض الملاح الجاهل الحكيم ، ولما انتهوا من عد العلوم المرعبة أسماؤها ، قال في وقار تمزجه نشوة الانتصار ، لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة فهل درستم علم السباحة ؟ وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة – لا قدر الله – كيف تسبحون وتصلون إلى الساحل بسلام ؟ قالوا لا والله يا عم،هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته والإلمام به،هنالك ضحك الملاح وقال إذا كنت قد ضيعت نصف عمري فقد أتلفتم عمركم كله ، لأن هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان ، إنما كان ينجدكم العلم الوحيد ، هو علم السباحة الذي تجهلونه .

هذه قصة الأمم المتمدنة الراقية التي كانت دائرة معارف أو موسوعة في العلوم والآداب ، وكانت زعيمة العالم كله في كل ما أنتجه البشر وتوصلوا إليه في العلوم والحكمة ، واكتشفوا به هذا الكون الواسع والذخائر المودعة فيه ، ولكنها جهلت العلم الوحيد الذي يوصل إلى الخالق ويعرف به ، والذي تنال به النجاة وهو بر السلام والساحل المقصود ، هو الذي يضبط الأعمال والرغبات، ويقهر النزوات والشهوات،ويصلح الأخلاق ويهذب النفوس ويردع عن الشر ويدفع إلى الخير ، ويلهم خشية الله التي لا صلاح للمجتمع ولا قوام للمدنية بغيرها ، ويحمل الإنسان على التهيؤ للمصير والاستعداد للآخرة ، ويخفف من غلواء الأنانية وحب الذات ، والتكالب على حطام الدنيا ،

ويلهم الاقتصاد والسداد ، ويمنعه من الجهاد في غير جهاد .

وقد حكى الله قصة هذه الأمم التي غلب عليها الزهو والتيه واستصغرت شأن الأنبياء المبعوثين في عصرها ، الذين لم يشتهروا بامتياز في علوم من العلوم السائدة فقال « فلما جاءتهم رسلُهم بالبيناتِ فرحوا بما عندَهم من العلمِ ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون [1] ».

لا استغناء ولا استكبار بعد بعثة الرسول :

وهذه قصة كل أمة بلغت شأواً بعيداً في العلم والمدنية والصناعة والحكمة بعد بعثة الرسول الأعظم ﷺ ، وقد منعها استكبارها وزهوها واعتمادها الزائد على علومها وحضارتها وعلى أساتذتها النوابغ وعباقرتها الكبار من الإفادة من العلم الغزير الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ والتمسك بأهدابه والسير في ركابه ، وقصة كل أمة معاصرة تمكنها الإفادة من هذا الدين الخالد ومن هذا النور الوضاء ، وستلقى هذه الأمم كلها جزاء هذا الاستكبار ونتيجة هذا الإنكار أو الاستغناء في تعفن حضارتها ، وانهيار مدنيتها .

---

١ - المؤمن ٨٣ .

الأقطار الإسلامية والعربية في خطر عظيم :

وشأن الأقطار الإسلامية والعربية في الاعراض عن هذه التعليمات وهذا العلم الغزير الموجود والزهد في الاستفادة منه والتهالك على الحضارة الغربية والقيم المادية والأوضاع الجاهلية والفلسفات القومية أو الاشتراكية أغرب ، وهي على خطر عظيم لا يدفعه شيء ، ولا تزال معاقبة بالفرقة والاختلاف والفوضى والثورات والتحاسد والتباغض وعدم التعاون والاتحاد وذهاب الريح والشوكة والهوان على العدو .

طوائف العلماء والباحثين في مدينة جديدة :

ومثل الأنبيـــاء ومثل الطوائف الأخرى من أهل العلم والحكمة والبحث والتحقيق كمثل مدينة عامرة ، زاهية منظمة، يدخل فيها طوائف مختلفة ذات الاختصاصات والاتجاهات المختلفة ، فيدخل فيها طائفة موضوعها التاريخ فتبحث في تاريخ هذه المدينة القديمة ، من اختطها ؟ ومتى قامت وعمرت وما مر بها من أحداث وما تعاقب عليها من حكومات ؟

وطائفة من علمـــاء الآثار فتدرس الألواح والحفائر والكتابات المستخرجة من الأنقاض وعملية الحفر،وتعين عصورها وتهـدي إلى الحضارات العتيقة المندثرة والمدارس الدارسة والعادات القديمة .

وطائفة صناعتها الجغرافية ، فهي تدرس حدود هذه المدينة إلى أين تنتهي وموقعها الجغرافي ، والجبال المحيطة بها ، المطلة عليها ، والأنهار التي تخترقها ومن أين تنبع .

وطائفة هوايتها الأدب والشعر فيستهويها جمال الطبيعة الساحر والمناظر الجميلة الفاتنة ، والنسيم العليل البليل الذي يهب فيها صباحاً ، والأزهار والرياحين التي تملأ حدائقها فتهيج فيها الشاعرية ، وتفيض قريحتها بالشعر الرقيق الرائق ، والمعاني اللطيفة ، والأخيلة البديعة .

وطائفة من علماء الألسن والفلسفة اللغوية والقواعد تتأمل في اللغة التي يتكلم بها أهل المدينة فيبحثون في نشوئها وارتقائها وتطورها وصلتها باللغات الأخرى ، ويبحثون عن الحلقات المفقودة ويضعون معاجم ، ويؤلفون كتباً في قواعد اللغة ويضبطون كتابتها .

هذه كلها طوائف من أهل العلم لا يستهان بقيمتها ولا ينقص من شأنها ، ولكل وجهة هو موليها ، ولكنها كلها على خطر لو لم تعرف من الذي يحكم هذه المدينة وما نظام الحكم ، وما هي القوانين السائدة التي يجب عليها كلها — على اختلاف نزعاتها — الرضوخ لها ، وما هي جباية الرعوية أو التجنس بجنسية هذا البلد أو المملكة ، وما هي الضرائب المفروضة على أهل هذه المدينة ،

وما هي قواعد المرور وقوانين الإقامة في هذا البلد ، إلى غير ذلك مما يتصل بالحياة الشريفة الشرعية في هذا البلد المنظم .

مهمة الأنبياء في هذه المدينة :

وتدخل طائفة كاملة المواهب صحيحة القوى ، لطيفة الحس، رقيقة الذوق ، لا تفقد شيئاً مما يتجمل به البشر ، ولكن همها غير هم هذه الطوائف كلها ، ودعوتها ومنهاجها غير دعوة هذه الطوائف ومنهاجها ، هي تهتدي – وبالأصح يهديها قيم هذا البلد ويأخذ بيدها – إلى مركز هذه المدينة والمدنية وإلى مصدر الحياة والقوة والتنظيم في هذه المملكة المنظمة تتصل به رأساً وتتلقى أحكامه وإشاراته ، وتبلغها إلى جميع الطوائف وتتوسط بين إدارة هذه المدينة وبين سكانها في التبليغ والدعوة ، ولا شك أن جميع الطوائف مدينة لهذه الطائفة في حياتها واشتغالها بعلومها ومباحثها في هدوء وسلام ، وإن هذه العلوم كلها تنشأ وتزدهر في كنف هذه المعرفة التي تحملها وتنشرها تلك الطائفة المقدسة وتعيش في حمايتها وظلها ، فلولا هذه المعرفة ، ولولا هذه الطائفة لوقعت الطوائف الأولى كلها فريسة الجهل ونقض القانون ، وألقي القبض عليها وزجت في السجون ، وتحولت علومها وجهودها وإنتاجها إلى الأوهام والظنون ، أو على الأقل إلى العبث والمجون ، فإن أساس جميع العلوم والاكتشافات

والنظام الذي يربط هذه الوحدات هو معرفة المدبر والمنظم لهذه المدينة الواسعة والقطب الذي تدور حوله رحى الحياة في هذا البلد، وهي المعرفة التي اختص بهـا الأنبياء واختصت بهم «وكذلكَ نُري إبراهيمَ ملكوتَ السمواتِ والأرضِ وليكونَ من الموقنين [1]».

أهم الواجبات وأقدس المهمات :

وترون الخطب أعظم إذا عرفتم أن الأمر ليس أمر الحاكم والمنظم فقط، إن الحاكم والمنظم لهذا البلد - في المثال الذي ضربناه - هو خالق هذا البلد الذي أخرجه من العدم إلى الوجود، وأفاض عليه الحياة ورزقه كل ما يحتاج إليـه ويصلحه وهو الرازق، وهو الجواد، وهو الغفور الودود «هو الله الذي لا إلهَ إلا هو عالمُ الغيبِ والشهادةِ هو الرحمنُ الرحيم. هو الله الذي لا إله إلا هو، الملكُ القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ، سبحنَ اللهِ عما يشركون. هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السمواتِ والأرض، وهو العزيزُ الحكيم [2].»

إذن كانت معرفته بكل العقل ومحبته بكل القلب وطاعته

---

(1) الانعام ٧٦.   (2) الحشر ٢٢، ٢٣، ٢٤.

بكل الجوارح وإجهاد النفس وبذل الوسع في إرضائه، والتقرب والتودد إليه أهم الواجبات، وأقدس المهمات ومقتضى الإنسانية والمروءة، ومطالبة العقل السليم والفطرة المستقيمة.

وهذا مركز النبوة والأنبياء ووضع رسالتهم ومهمتهم بين مراكز الطوائف البشرية ورسالاتها ومهماتها، فهم كالروح بالنسبة إلى الجسد وكالعقل بالنسبة إلى العمل، وكالعين بالنسبة إلى الإنسان، والدنيا بغيرهم - بعلومها وآدابها ومدنياتها وصنائعها - ظلام في ظلام في ظلام، «ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعض إذا أخرجَ يدَه لم يكدْ يراها، ومن لم يجعلِ اللهُ له نوراً فما له من نور[1]».

العامل الأساسي الأكبر في صلاح البشرية وارتقاء المدنية:

وليس الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - مصدر المعرفة الصحيحة وعلم اليقين فحسب، بل هم الذين يمنحون الأجيال البشرية ثروة أخرى كذلك، يرجع إليها الفضل في صلاح البشرية كلها وفي ازدهار المدنية كلها، وهي قوة كراهة الشر وحب الخير، والتمرد على قوى الشر ونوازعه والاندفاع إلى الخير والجهاد في سبيله، هذه القوة التي كانت العامل الأساسي الأكبر في كل ما قام به البشر من مآثر وبطولات، ولم تزل

(١) النور ٤٠.

الوسائل والمواد والمؤسسات خاضعة دائماً للإرادة الإنسانية والعزم القوي ، إن الشأن كل الشأن في أن يريد الإنسان، وإن الخير كل الخير في أن يريد الإنسان الخير ، وكان منبع هذا الخير دائماً تلقين الأنبياء وتعليمهم، هم الذين كانوا — في كل عصر من عصور بعثتهم — يبعثون في أمتهم وفي جيلهم طبيعة حب الخير و كراهة الشر ، والانتصار للحق ومحاربة الباطل والفساد، وكانت كلما ضعفت هذه الطبيعة وتحولت الطبيعة الإنسانية طبيعة بهيمية أو سبعية — كما شاهدنا في الأمم التي قص الله علينا قصتها في القرآن — عالجوها وحولوها إلى طبيعة إنسانية كريمة رقيقة ، ووجد — بتعليمهم الفاضل وجهادهم المتواصل ونسيانهم أنفسهم ولذاتهم ومجازفتهم بأرواحهم ومهجهم وشرفهم — في هذه الأنعام السائمة والسباع الضارية ، رجال تعطرت بأنفاسهم الدنيا ، وتجمل بهم تاريخ الإنسانية ، وفاقوا الملائكة في السمو وعلو المدارك وعاشت بهم الإنسانية ، وقام العدل ، وانتصف الضعيف من القوي ، ورعى الذئاب الغنم ، وانتشرت الرحمة ، وفاضت المحبة ، ونفقت سوق الخير،وقامت سوق الجنة وهبت نسائم الايمان ، وتحررت النفوس من ربقة الهوى والشهوات وانجذبت القلوب إلى الخير انجذاب الحديد إلى المغناطيس .

بقايا النبوة وآثار دعوتها وجهادها :

إن المدنية لا تدين لأي طائفة من طوائف البشر كما تدين

لهذه الطائفة الربانية، إنها تدين لها في حياتها وبقائها ، وفي شرفها وكرامتها ، وفي اعتدالها وسدادها فلولاهم ﷺ لغرقت سفينة الإنسانية بما فيها من علوم وتراث حضاري وفلسفة وحكمة ، ولتحولت الأجيال البشرية إلى قطعان من السائمة أو الوحوش ، لا تعرف رباً ، ولا تعرف ديناً ولا خلقاً ، ولا تعرف رحمة ولا محبة، ولا تعرف معنى أسمى وغاية أعلى من العلف والرتع، ومن الماء والكلأ ، إن كل ما يوجد في هذا العالم من المعاني الإنسانية الكريمة ، والأحاسيس الرقيقة اللطيفة ، والأخلاق العالية الفاضلة والعلوم الصحيحة النافعة ، ومن القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد، إنما يرجع فضله وينتهي تاريخه إلى وحي السماء ، وتعليمات الأنبياء ، وتبليغهم ودعوتهم وجهادهم ، وإلى أصحابهم وتابعيهم بإحسان ، وما زال العالم ولا يزال يأكل من رفدهم ، ويمشي في ضوئهم ، ويعيش في البناء المحكم الذي بنوه ؟

المحاضرة الثانية

سمات النبوة وخصائص الأنبياء

إخواني ! تحدثت إليكم في المحاضرة السابقة عن النبوة، حاجة الإنسانية إليها وفضلها على المدنية ومهمتها ورسالتها في العالم، وأحب أن أتحدث إليكم في هذه الفرصة السعيدة عن طبيعة النبوة ومزاجها الخاص، وعن خصائص الأنبياء وعما يمتازون به عن قادة الفكر وزعماء الإصلاح من طوائف البشر .

جناية الاساليب الصناعية والمصطلحات السياسية على فهم النبوة والانبياء :

لقد طغت الأساليب الصناعية والمناهج السياسية وطرق القيادة والتنظيم الحديثة، ومناحي التربية والتعليم التي قامت ولا تزال بدورها في تعليم الأميين، ورفع مستوى الحياة، ومحاربة

الفساد ، وتحرير البـــلاد ، وكل يذكر ويشكر ، ولكنها استولت على العقول والنفوس وانطبعت نفسية أصحابها وسيرتهم ومنابع قوتهم وعزائمهم ، ودوافع أعمـالهم وجهادهم وأساليب تفكيرهم ومقاييس نجاحهم في نفوس النـــاس ، حتى أصبحوا لا يتصورون النبوة والأنبياء إلا من هذه الزاوية، ولا ينظرون إليهم الا بهذا المنظار ، وقد بدأ بعض الكتاب الإسلاميين في العصر الأخير يخضعون في قليل أو كثير لهذه المفاهيم والظلال ، ويفسرون دعوة الأنبياء والرسل وأعمالهم بمصطلحات سياسية واجتماعية حديثة ، مما يحول بين أهل العصر وبين فهم منصب النبوة على حقيقة أو طبيعة الأنبياء وطبيعة رسالتهم التي يكلفون بها ، ومناهج عملهم ، ويمنع من الاقتداء بهم والتشبع بروحهم ، ويتجه بالفكر على درب أقل ما يقال فيه أنه غير درب النبوة وشاكلتها .

الحاجة الى دراسة القرآن المجردة عن التأثيرات الخارجية :

لذلك اشتدت الحاجة إلى دراسة القرآن في هـذا الموضوع دراسة عميقة حرة ، مجردة عن التأثيرات الخارجية والثقافات الأجنبية ، مجردة كذلك عن ما قد تهواه قلوبنا وتطمح إليه نفوسنا ، وقد يكون مما يستحسن ولا يستهجن وقد يكون شيئاً طبيعياً ، ولكن لا يجوز أن يخضع القرآن وتخضع سيرة الأنبياء السابقين لكل ما يستحسن ، مجردة عن كل تقليد وعن

كل تطبيق ، فالعصور تتبدل ، ومناهج الفكر تتبـدل ، وقيم الأشياء ودرجاتها تتغير وتتبدل ، وترتفع وتنخفض ، ومـــا حدث في عصر من نظرية أو مصطلح لا يجوز أن يسلط على عصر سابق أو جيل سابق ، فضلاً عن القرآن الذي هو كتاب سماوي خالد، فإنه لا يخضع لعصر ولا يخضع لفكر ، ولا يخضع لفلسفة فكرية أو سياسية ، وعلوم الإنسان ونظرياته كثيب مهيل من ومل يتناثر وينبسط ، وينضوي ويمتد ، لا يصلح عليه البناء ولا يجوز أن ينزل عليه القرآن من منزلته العالية السماوية ومن أساسه المحكم الأبدي .

الفارق الاساسي بين الانبياء والمرسلين ، والحكماء والمصلحين :

إن أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء أن العلم الذي ينشرونه بين الناس والعقيدة التي يدعون إليها والدعوة التي يقومون بها لا تنبع من ذكائهم أو حميتهم أو تألمهم بالوضع المزري الذي يعيشون فيه ، أو من شعورهم الدقيق الحساس ، وقلبهم الرقيق الفياض ، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة ، لا شيء من ذلك، إنما مصدره الوحي والرسالة التي يصطفون لها ويكرمون بها ، فلا يقاسون أبداً على الحكماء أو الزعماء أو المصلحين ، وجميع أصناف القادة الذين جربتهم البشرية وتاريخ الإصلاح والكفاح الطويل ، والذين هم نتيجة بيئتهم، وغرس حكمتهم ،

وصدى محيطهم ، ورد فعل لما كان يجيش بـه مجتمعهم من فساد وفوضى ، والقول الفصل في ذلك قول القرآن على لسان سيد الرسل ﷺ « قل لو شاء الله ُما تلوْتُه عليكم ولا أدراكم به فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون [١] » وقول الله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتابُ ولا الإيمان ، ولكن جلعناه نوراً نهدي به مَنْ نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم [٢] » . وقال « وما كنتَ ترجو أن يُلقى إليك الكتاب إلا رحمةً من ربِّك ، فلا تكونن ظهيراً للكافرين [٣] » وقوله بعد ما ذكر من بعد الرسول عن البيئة التي حدثت فيها هذه الحوادث والوقائع التي يحكيها لقومه « وما كنتَ بجانب الطورِ إذ نادينا ولكن رحمةً من ربك ، لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون [٤] » ويقول القرآن عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل وعن مبدئها ومصدرها « يُنزِّل الملائكةَ بالروحِ من أمرِه على منْ يشاءُ من عبادِه أنْ أنذروا أنــه لا إله إلا أنا فاتقون [٥] » .

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية أو حوادث

---

(١) يونس ١٦
(٢) الشورى ٥٢
(٣) القصص ٨٦
(٤) القصص ٤٦
(٥) النحل ٢

وقتية خارجية ، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع وشاء المجتمع ، وقد قال الله تعالى عن رسوله الكريم « وما ينطِقُ عن الهوى ، إنْ هوَ إلا وحيٌ يوحى [١] » ولا يستطيع أن يحدث تغييراً أو تبديلًا أو تحويراً أو تعديلًا في رسالته وأحكام الله ، وقد قال لرسوله « قُلْ ما يكونُ لي أنْ أبَدّله من تلقاءِ نفسي إن أتبّع إلا ما يوحى إليّ ، إني أخاف إن عصيت ربي عذابَ يوم عظيم [٢] » ونفى الله عنه المداهنة وعصمه عنها فقال « ودّوا لو تُدهن فيدهنون [٣] » وقد أنذره بالعقاب الأليم المخزي ، إذا تجنى على الله أو قال ما لم يقله أو زاد أو نقص شيئاً من وحيه وكلامه ، فقال « تنزيلٌ من ربٍّ العالمين . ولو تقوّلَ علينا بعضَ الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم مِن أحد عنه حاجزين [٤] » . وقد أمره بتبليغ الرسالة بنصها وفصها ، وبرمتها وجملتها ، فقال « يا أيها الرسولُ بَلّغْ ما أنزِل إليك من ربك وإن لم تفعلْ فما بلغتَ رسالتَه ، والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين [٥] » .

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية المميزة بين الأنبياء

---

(١) النجم ٣ - ٤
(٢) يونس ١٥ (٣) القلم ٩
(٤) الحاقة ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ (٥) المائدة ٦٧

صلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء والذين تكون رسالتهم وكفاحهم وحي بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم واستجابة للقلق الذي يساور المجتمع ، ويساور النفوس الواعية ، والذين يلاحظون دائماً البيئة والمجتمع والظروف والأحوال ، ويراعون المصلحة والسياسة ، ويخضعون لها في كثير من الأحوال فيتنازلون عن أشياء كثيرة، وقد يتساومون الأحزاب ويتبادلون معها المنافع، ومبدأ كثير منهم الذي يأخذون به « در مع الدهر كيف هو دائر » .

الحكمة والتيسير في دعوة الانبياء وفي التشريع :

وليس معنى ذلك أن الأنبياء لا يراعون الحكمة والمصلحة مطلقاً ، ولا يراعون طبائع الناس واستعدادهم ولا يتحرون لدعوتهم المكان الصالح والزمان الصالح ونشاط النفوس وإقبال القلوب ، ولا يراعون التدريج والتيسير ، كلا ! إن كل ذلك مما تقتضيه طبيعة الدين السمحة وحكمة الله البليغة وفطرة الأنبياء الحكيمة ، ونطقت به الآثار وشهدت به الحوادث وزخر به تاريخ التشريع وسيرة الرسول ، وقد قال القرآن « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً [1] »، وقال « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك

(١) الأسراء ١٠٦

لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً [١] » ، وقد قال « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر [٢] » ، وقال « وما جعل عليكم في الدين من حرج [٣] » ، وقد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالتيسير والتبشير ، وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن « يسرا ولا تعسرا ، بشرا ولا تنفرا [٤] » ، وقال لأصحابه « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين [٥] » ، وقد كان يرجىء تطبيق شيء فيه مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هي أعظم وأهم منها ، فقال لعائشة رضي الله عنها : « لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام [٦] » وقال ابن مسعود رضي الله عنه « كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا [٧] » وعن جابر بن عبدالله « كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي ﷺ ثم يرجع فيؤم قومه فصلى العشاء فقرأ البقرة فانصرف الرجل فكان معاذ ينال منه ، فبلغ النبي ﷺ فقال : فتان فتان ثلاث مرار [٨] » و « عن ابن مسعود قال قال رجل يا رسول الله إني لأتأخر عن

---

(١) الفرقان ٣٢
(٢) البقرة ١٨٥ (٣) الحج ٧٨
(٤) صحيح البخاري ج٢ ص ٦٢٢
(٥) صحيح البخاري ج ١ ص ٣٥
(٦) صحيح البخاري ج ١ ص ٢١٥
(٧) صحيح البخاري (٨) صحيح البخاري

الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها ، فغضب رسول الله ﷺ ما رأيته غضب في موعظة كان أشد غضباً منه يومئذ . ثم قال : « يا أيها الناس إن منكم منفرين فمن أم منكم الناس فليتجوز ، فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة [1] » والنصوص في ذلك والشواهد أكثر من أن تحصى[2] ، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته ﷺ مفروض في سيرة الأنبياء السابقين للحكمة التي وصفهم الله بها « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب [3] » «اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة [4] » .

ولكن كل هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس إنما هو في التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية ، ومما ليس من العقائد ومبادىء الدين في شيء ، أما ما كان من العقائد والمبادىء والفرائض والنصوص وما يفرق بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك ، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله فالأنبياء عليهم السلام ، على اختلاف عصورهم ، أصلب فيه من الحديد وأثبت عليه من الجبال ، لا يعرفون تنازلاً ، ولا يعرفون هوادة ، ولا يرضون مساومة .

---

(١) صحيح البخاري

(٢) إقرأ الفصل النفيس « باب التيسير » في حجة الله البالغة لشيخ الاسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي ج ١

(٣) ص ٢٠ (٤) الانعام ٨٩

إخلاص الدين لله وإفراد العبادة له :

والسمة الثانية هي أن الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم في كل زمان وفي كل بيئة هو تصحيح العقيدة في الله تعالى وتصحيح الصلة بين العبد وربه ، والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده ،وإنه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده ، وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم ، الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأوثـــان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات ، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية « إن الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة ويقبل شفاعتهم فيهم بالاطلاق بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً ويقلده تدبير تلك المملكة في ما عدا الأمور العظام [1] » .

وكل من له صلة بالقرآن ، وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة ، يعرف اضطراراً وبداهة أن القضاء على هذه الوثنية والانكار عليها ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها كان هدف النبوة الأساسي ، ومقصد بعثة الأنبياء وأساس دعوتهم ، ومنهى

---

(١) التعبير منقول من حجة الله البالغة للامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي .

أعمالهم وغاية جهادهم وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم ، حولها يدندنون ومنها يصدرون وإليها يرجعون ، ومنها يبدئون وإليها ينتهون ، والقرآن تارة يقول بالاجمال « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون [1] » وتارة يقول بالتفصيل فيسمي نبياً نبياً ويذكر أن افتتاح دعوته كان بهذه الدعوة إلى التوحيد فقال « لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم [2] » « وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون [3] » « وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب [4] »وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان، إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط [5] » .

أما إبراهيم فدعوته إلى توحيد الألوهية ونبذ الأصنام والأوثان أوضح وأصرح، ففي سورة الأنبياء«ولقد آتينا ابراهيم

---

(١) الانبياء ٢٥
(٢) هود ٢٥ ، ٢٦
(٣) هود ٥٠
(٤) هود ٦١
(٥) هود ٨٤

رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين [١] » وفي سورة الشعراء « واتل عليهم نبأ ابراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فانهم عدو لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين [٢] » وفي سورة مريم « واذكر في الكتاب إبراهيم ، إنه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً [٣] » وفي سورة العنكبوت« وابراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ، فابتغوا عند

(١) الانبياء ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ، ٥٤

٢ ـ الشعراء ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ (٣) مريم، ٤١ ، ٤٢

الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون[1] » وفيها « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين[2] » .

وكذلك يوسف فقد جاء في القرآن في موعظته البليغة الحكيمة في السجن « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وبالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر النــــاس لا يشكرون يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا اسماء[3] سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا

(١) العنكبوت ١٦، ١٧ (٢) العنكبوت ٢٥

(٣) كلمة الاسماء تدل على أن معبوداتهم كانت أشخاصــاً مقدسة موهومة اما لا وجود لها اصلا كما يوجد في نظام الشرك وعقائد المشركين كثيراً ، واما كان لها اصل ووجود ولكن ليس لها من الالوهية والربوبية نصيب ، وكذلك قال هود لقومه ، أتجادلونني في اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان » وذكر الاسماء دليل صريح على أن المعبودات كانت آلهة خيالية أو أصناماً بأسماء الماضين .

إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون [١] »
وقد كانت هذه دعوة موسى لفرعون الذي كان يدعي أنه مظهر للشمس «الاله الأكبر» عند قدماء المصريين ، فيقول « أنا ربكم الأعلى » وقد قال حين سمع دعوة موسى « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ، الآية [٢] » وقـــال « لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين [٣] » .

وقد سمى القرآن عبادة الأوثان الشرك الأكبر والرجس وقول الزور وشنع عليه التشنيع الأعظم فقال في سورة الحج « ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق [٤] » .

الجاهلية الخالدة العالمية وجنايتها على البشر :

إن هذه الوثنية والشرك بمعنى التأله لغير الله وغاية التذلل له ، والسجود والدعـــاء والاستغاثة والنذر والذبح له ، هي

---

(١) يوسف ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ (٢) القصص ٣٨
(٣) الشعراء ٢٩ (٤) الحج ٣٠ ، ٣١

الجاهلية العالمية التي هي أقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسقطته ، وهي باقية مع البشر في جميع مراحل حياته وتطوراتها ، وهي التي تثير غضب الله وغيرته ، وتحول بين العبد وتقدمه الروحي والخلقي والمدني ، وتهبطه من أعلى الدرجات إلى أسفل الدركات « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين [(١)] » تهبطه من درجة مسجود للملائكة إلى درجة ساجد للضعيف من المخلوقات والخسيس من الموجودات ، إنها هي الجاهلية التي تخنق القوى وتقتل المواهب وتقضي على الاعتماد على الله والاعتداد بالنفس والثقة بها ، وتصرف الإنسان عن الالتجاء إلى الله السميع البصير ، العليم القدير ، الجواد الوهاب ، الغفور الودود ، والاستفادة من صفاته التي لا تحد وخزائنه التي لا تنفد إلى الالتجاء إلى الضعيف الفقير ، العاجز الحقير ، الذي لا يملك شيئاً « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيمة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير . يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني

---

(١) التين ٤ ، ٥

الحميد [1] » .

فهم الصحابة والعرب الأولين لكلمات القرآن ومصطلحاته:

هذه الوثنية (في دائرة ما بعد الطبيعة) بجميع أشكالها الواضحة والدقيقة كانت موضوع جهاد الأنبياء في كل عصورهم، وفي جميع بيئاتهم ومجتمعاتهم ، وهو الذي أثار غضب أهل الجاهلية فقالوا «أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب. وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم، إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق [2] » ومما لا يشك فيه عاقل درس تاريخ العصر النبوي واطلع على أخبار صحابة الرسول ﷺ ، أن الصحابة لم يكونوا يفهمون من هذه الآيات التي سردناها إلا هذه الوثنية السافرة وعبادة الأصنام والأوثان ، وتقديس الأشخاص الماضين أو الموجودين والسجود لهم،والدعاء منهم والذبح والنذر لهم،والحلف بأسمائهم، والتقرب إلى الله بعبادتهم والاعتماد على شفاعتهم المطلقة التي لا ترد ، وطلب النفع والضر وكشف الكربة منهم ، ولا يفهمون من معنى الإله ، والرب ، والعبادة ؛ والدين ، إلا هذه المفاهيم الدينية ، وهذا هو المستفيض المتواتر من آثارهم وأخبارهم

---

(١) فاطر ١٣ ، ١٤ ، ١٥   (٢) سورة ص ٥ ، ٦ ، ٧

ومناهج كلامهم لا يختلف فيه اثنان .

ما يجب أن يكون الركن الأساسي في الدعوات الدينية وشعار الدعاة في جميع العصور :

ولا يزال هذا هو الركن الأساسي في الدعوات الدينية وحركات الإصلاح إلى يوم القيامة ، وهو تراث النبوة الخالد ، « وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون [1] » وشعار جميع الدعاة إلى الله وجميع المصلحين المجاهدين .

أما مظاهر الجاهلية الأخرى كالطاعة لغير الله والتحاكم إلى غير الله وقبول التشريع غير الإلـهي ، وتسليم حكومة لا تقوم على النيابة عن الله ، وعلى أحكامه ، فكل ذلك يتبع هذه الوثنية والشرك ويأتي بعده ، ولا يجوز أن يقلل من شأن هذا الشرك الجلي المتقدم ذكره وأهميته وأن يوضع في الهامش من منهاج دعوة أو جهاد ؛ أو يساوى بينه وبين معاني الطاعة والحكم السياسية ويحكم عليها حكماً واحداً ، أو يعتقد أنه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المتخلفة التي ولى عصرها وانقضى دورها ، فان هذه إساءة إلى دعوة الأنبياء وجهودهم ، وشك في خلود

---

(١) الزخرف ٢٨

القرآن وأنه هو الكتاب الأخير الدائم ، وشك في أن منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذي ارتضاه الله تعالى ، والذي كتب له من النجاح والتوفيق والانتاج والأثمار ما لم يكتب لأي منهاج من مناهج الاصلاح .

وصية للشباب والدعاة والكتاب :

أيها الشباب الأعزاء ستتخرجون في هذه الجامعة دعاة مصلحين ، وكتابا مؤلفين وقادة موجهين ، فأريد أن أوصيكم وصية هي عصارة تجارب ودراسات طويلة ، ولا تعرفون قيمتها وأهميتها إلا بعد التجربة الطويلة ، إياكم أن تعطي كتاباتكم وعرضكم للإسلام وحقائقه ومبادئه فكرة أن المسلمين ظلوا هذه القرون الطوال في جهل متصل عن فهم هذا الدين الذي هو دين كل عصر وجيل ، وعن فهم القرآن ومصطلحاته وتعبيراته الأساسية ، لأن ذلك يثبت أن هذا الكتاب بقي هذه المدة الطويلة لا يفهم على حقيقته وأنه بقي مطويـاً على غرته ، وانقطعت الاستفادة منه بعد نزوله بمدة قصيرة ، وهذا لا شك يناقض قوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [1] » والوعد بالحفظ في موضع الامتنان يستوجب الفهم والشرح

---

(١) الحجر ٩

والعمل والتطبيق ، فلا خير في كتاب يبقى ، لا يفهم ولا يعمل به ، وقد قال لرسوله« إن علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه [١] » وهذا الأسلوب من التفكير الذي قد يتجه إليه بعض الكتاب والمفكرين في هذا العصر يرمي هذه الأمة الخالدة الولود بالعقم والجدب الفكري الدائم ، والشجرة التي بقيت أفضل مدة حياتها لا تعطي ثمارها، غير جديرة بالاعتماد والاعتناء ، ولا يرجى منها الخير .

وذلك لا شك نتيجة ما نالته المعاني السياسية والمؤسسات السياسية والتنظيمات في عصرنا من الأهمية بتأثير النظم الحديثة والثقافات الحديثة ، وكل من يسعى لمجد المسلمين ويطمح إلى سؤددهم وصلاح أحوالهم ويريد أن يسود النظام الإسلامي ويقوم الحكم الإسلامي في جميع أقطار المسلمين قد يقع في هـــذا التفريط والافراط ، ولا شك أنها غايات سامية يجب أن يجندلها المسلمون والدعاة والمفكرون منهم بصفة خاصة مواهبهم وطاقاتهم وأقلامهم ، ولكن يجب عليهم كذلك أن لا يخضعوا القرآن لهذه الغاية ، والنصوص الداعية إلى هذه الغايات ، الحاثة عليها، الموجبة لها ، وافرة كثيرة لا يحتاج معها إلى هذا التأويل .

---

(٢) القيامة ١٧ ، ١٨ ، ١٩

عقيدة الاخرة والاهتمام بها في سيرة الانبياء ودعوتهم :

والسمة الثالثة من سمات النبوة وملامح دعوتهم وشعائرها هو التشديد على جانب الآخرة واللهج بها والاشادة بذكرها والتنويه بشأنها تنويهاً يجعلها من النقط الأساسية في دعوتهم ، ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم، ويتذوق كلامهم أن الآخرة دئماً نصب أعينهم ، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها وسعادتها وشقائها فهم إلى الجنة في حنين شديد ومن جهنم في فزع كبير ، وهو شيء طبيعي قد ملك عليهم مشاعرهم واستولى على فكرهم ، وحسبنا أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول ابراهيم وقد جاشت نفسه وفاضت عواطفه حين ذكر الآخرة وتمثل هولها وفزعها « والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . رب هب لي حكماً والحقني بالصالحين . واجعل لي لسان صدق في الآخرين . واجعلني من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبي إنه كان من الضالين . ولا تخزني يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم . وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين [١] » .

وكذلك ينظر إليها يوسف العزيز وهو في أوج أبهته

---

(١) الشعراء ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١

وسيادته ، له الكلمة النافذة والأمر المطاع في مصر ، أرقى مملكة وأخصب بلاد في ذلك العصر ، وقد أقر الله عينه من أبيه الكبير وأسرته العزيزة ، وأقر عينهم بما رأوه من إقبال الدنيا على يوسف ، وقد كان في ذلك ما يرضى الطموح ويزهى عالي الهمة بعيد النظر ، ولكن فكرة الآخرة وحسن الختام هي التي تسيطر على يوسف وتجعله لا يحسب لهذه العظمة حساباً كبيراً ، فيقول شاكراً داعياً ، راضياً وجلا « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً والحقني بالصالحين [1] » .

الحافز الحقيقي الى الدعوة وبذل النصح :

والايمان بالآخرة وتمثل ما فيها، من سعادة دائمة وشقاء دائم، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاء، وللكفار العصاة من عقاب ، هو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم وبذل نصحهم وهو الذي يقلقهم ويطير نومهم ويكدر صفو عيشهم ، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار ، وهو حافز أقوى وأعظم سلطاناً على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظـــام واضطراب الأحوال ، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد ، ويجعلون ذلك موجباً لدعوتهم وإنذارهم

---

(١) يوسف ١٠١

وسبباً لقلقهم وإشفاقهم، فيقول القرآن عن نوح وهو أول رسول يذكره القرآن بتفصيل « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم [١] » ويقول عن هود وهو من أقدم الأنبياء وقد بعث في قوم تهيأت لهم أسباب العيش وتوسعت لهم الدنيا وطابت لهم الحياة « واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم [٢] » ويقول عن شعيب وقد بعث في قوم لان لهم العيش وانشر في أرضهم الخصب « إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط [٣] » .

سيطرة هذه العقيدة على أتباع الرسل :

وقد تعدت هذه الفكرة ، بقوة تأثيرهم ، إلى أتباعهم والمؤمنين بهم ، وتجلى لهم قصر مدى هذه الحياة وتفاهتها، وعظمة الحياة الآخرة وخلودها ، وأنها الجد الذي يجاهد في سبيله المجاهدون ، ويسعى له العاملون ، ويتنافس فيه المتنافسون ،

(١) هود ٢٥ ، ٢٦ (٢) الشعراء ١٣٢، ١٣٣ ، ١٣٤، ١٣٥
(٣) هود ٨٤ ، وفي روح المعاني « فالمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال في الدنيا » .

فقال مؤمن آل فرعون « يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة، يرزقون فيها بغير حساب [1] » وقال سحرة فرعون بعد لحظة من إيمانهم بموسى لما أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم وما أدراكم به ؟ تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، والتصليب في جذوع النخل « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرماً فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . وذلك جزاء من تزكى [2] » .

مناط الامر الثواب والجزاء في الاخرة :

والأنبياء يبعدون كل البعد عن أن يطمعوا أمتهم في ملك أو سيادة أو منفعة دنيوية ، ويجعلونه ثمناً لإيمانهم أو مكافأة لقبول دعوتهم، بل بالعكس من ذلك ينكرون على حسب العلو

---

(١) المؤمن ٣٩ ، ٤٠ (٢) طه ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦

والاستعلاء والاستيلاء على الناس بدافع حب الجاه والطموح الفردي أو القومي ، وقد جاء في القرآن « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين [1] » إنما يطمعونهم في رحمة الله ويخوفونهم من عذاب الله ، ويجعلون منـــاط الأمر الثواب والجزاء في الآخرة ، إنما يذكرون أن هذا الايمان والطاعه والاستغفار يجلب رحمة الله ويستدر الرزق ، وينزل الأمطار ويدفع ما هم فيه من جدب وضيق ، فيقول نوح « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً [2] » ويقول هود « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليـــه ، يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين [3] » وهذه طبيعة الايمان والاستغفار وسجيتها التي لا تتخلف عنها كطبائـــع الأشياء وخواص الأدوية ونواميس الفطرة .

سيرة الانبياء وأصحابهم في الزهد وايثار الاخرة على الدنيـــا :

ولم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة وإيثارها على الدنيـــا

---

(١) القصص ٨٣ .   (٢) نوح ١٠ ، ١١ ، ١٢

(٣) هود ٥٢

والاستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها دعوة باللسان فقط ، ودعوة لأمتهم فقط، بل كان ذلك مبدءاً ومنهاجاً لحياتهم وكانوا من أول المؤمنين بها ، السائرين عليها في حياتهم وخواصهم وعشيرتهم وقد قال شعيب معبراً عن جماعته كلها « ما أريد أن اخالفكم إلى ما أنهاكم عنه [1] » فكانوا زاهدين في الدنيا مقبلين على الآخرة ، قد زهدوا في المناصب الكبيرة والمراكز الخطيرة ، وضحوا بها في سبيل دعوتهم وفوتوا الفرص ، وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبل زاهر في الحياة والغد المضمون ، وكانوا من « اللامعين » في المجتمع بذكائهم ونبوغهم وشرف أسرتهم وصلاتهم بالبلاط أو الأسرة الحاكمة، وعن ذلك عبر قوم صالح ، إذا قالوا « يا صالح قد كنت فينا مرجوا [2] » وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأسرتهم، وقد قيل لسيد الرسل ﷺ « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلًا. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً [3] » وكان من تأثير صحبته أن أزواجه ، رضي الله عنهن ، كلهن آثرن الله ورسوله وآثرن الفقر والضيق مع الرسول على الرخاء وخفض العيش مع

---

(١) هود ٨٨

(٢) هود ٦٢

(٣) الاحزاب ٢٨ ، ٢٩

غيره ، ومعيشة النبي ﷺ وحياته وحياة أهل بيته معروفة في التاريخ ، معروفة في السيرة النبوية ، تثير العجب وتسحر النفوس ، وتملأ القلوب عظمة ومهابة ، وتنصب للدعاة والسائرين على منهاج النبوة مناراً عالياً من نور وكان شعارها الدائم « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة [1] » ودعاؤها المقبول « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً [2] » .

الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الاصلاحية :

ولم تكن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة أو الاشادة بها ، كضرورة خلقية أو كحاجة إصلاحية لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ومدنية صالحة ، فضلاً عن المجتمع الإسلامي ، وهذا وإن كان يستحق التقدير والاعجاب ، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً ، والفرق بينهما أن الأول – منهج الأنبياء – إيمان ووجدان ، وشعور وعاطفة ، وعقيدة تملك على الانسان مشاعره وتفكيره وتصرفاته ، والثاني اعتراف وتقرير ، وقانون مرسوم ، وإن الأولين يتكلمون (عن الآخرة) باندفاع والتذاذ ويدعون إليها بحماسة وقوة ،

---

(١) صحيح البخاري

(٢) صحيح البخاري

وآخرون يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية والحاجة الاجتماعية ، وبدافع من الاصلاح والتنظيم الخلقي ، وشتان ما بين الوجدان والعاطفة ، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية[1].

مطالبة بالايمان بالغيب :

ومن سمات دعوة الأنبياء وصحفهم ، ومن ملامحها البارزة أنها تشدد على الإيمان بالغيب[2] وتجعله شرطاً أساسياً للهداية والانتفاع بالدين ، وشعاراً للمهتدين ، وعلامة للمتقين ، فقال ، « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون[3] » وتطالب به في قوة وشدة ، وتطلب من الذين يؤمنون بالله ويدخلون في الإسلام ،

---

(١) للمؤلف في تأملات في سورة الكهف المنشورة في « المسلمون » .

(٢) قال العلامة ابو السعود في تفسيره ، الغيب هو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يدرك بواحد منها ابتداء بطريق البداهة هو قسمان ، قسم لا دليل عليه ، وهو الذي أريد بقوله سبحانه تعالى ، «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو »، وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته ، والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام والشرائع واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء ».

(٣) سورة ألم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

ـهو دين جميع الأنبياء ـ أن يصدقوا بصفات الله العلية وقدرته الواسعة ، وأفعاله العجيبة التي تتحدى العقل الضعيف ، والعلم المحدود والتجارب القاصرة أحياناً ، ويصدقوا بكل ما جاء عن الرسل ، وذكر في الكتب السماوية مما لم يجربه البشر ، ولم يصدقه الحس ، ولم تألفه العقول ، اعتماداً على اخبار الرسل وحده ، وصدقهم في ما يروونه وينسبونه إلى الله ، واعتماداً على أن الله على كل شيء قدير ، يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء ، وهو الخلاق المبدع ، فعال لما يريد ، لا يحتاج إلى الأسباب التي هو خلقها ، ولا يتقيد بسننه التي هو سنها ، لقد خلق الأسباب ، وسن السنن ، ولكنه لا يزال خالقها ومالكها والمتصرف فيها ، والحاكم عليها ، وإنه لم يفلت منه زمامها ، وهي لم تستقل بوجودها وإرادتها ، ولم يتوقف أمره على مقدمات ووسائل ، « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ».

وقد زخرت الكتب السماوية ، وزخر القرآن الكريم بعجائب صنع الله ، وبالمعجزات والخوارق التي لا يصدقها ولا يسيغها ولا يحتملها إلا الإيمان بالغيب، الإيمان بقدرة الله المطلقة ومشيئة الله القاهرة ، والاعتماد الكامل على صحة هذه الكتب ، وصدق الرسل الذين نزلت عليهم وأخبروا بها ، أما الإيمان الذي لم يقم إلا على الحس والتجربة ، والمألوف من الحوادث ، ومطابقة العقل الظاهر ، والعلم المدون في الكتب ، فإنه إما

يرفض أن يقبله ويصدق به أو يتعثر ويتلجلج في قبوله والتصديق به ، أو يؤوله تأويلا يتفق مع ما ألفه ، ولذلك قال: « بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون [١]» وقد ذكر القرآن الفرق بين الفريقين ، فريق أكرمه الله بالإيمان الكامل وشرح صدره للإسلام ، وفريق ضاق عقله وصدره عن كثير مما جاء من الله ، وصور هذا الفرق تصويراً دقيقاً فقال : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون[٢]» .

وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله ما لا يقبل ولا يصدق إلا بالإيمان بالغيب ، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه ، وأخبار الرسل وما أجري على أيديهم من المعجزات ، وما أظهر لهم من الآيات ، ما لا يطيقه ولا يسيغه إلا الإيمان بالغيب ، وما لا يقبل التعليل العقلي ولا التطبيق بنواميس الطبيعة إلا بتكلف شديد مضحك ، وخروج على قوانين اللغة العربية وجراءة على الله ، وتجن على اللغة وأبنائها ، ووقاحة شديدة[٣] ، كانفلاق البحر لموسى وقومه ، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من

---

(١) النمل ٦٦ (٢) الانعام ١٢٥

(٣) اقرأ أمثلته الواضحة في تفسير سيد أحمد خان ومحمد علي اللاهوري.

الحجر بضرب موسى ، وارتفاع الجبل كالظلة على طائفة من بني إسرائيل ، وحياتها بعد موتها ، ومسخ فرق منهم قردة خاسئين، وحياة المقتول الذي جهل قاتله بضرب جزء من البقرة المذبوحة ، وتحول النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، ومنطق الطير الذي علمه سليمان ، وفهمه لحديث النمل ، ومطاوعة الرياح له ، وسيرها به غدوها شهر ورواحها شهر ، وانتقال عرش ملكة سبأ في طرفة عين ، وقصة ذي النون ، وخروجه من بطن الحوت ، وولادة عيسى الخارقة للعادة ، وهلاك أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، وإسراء الرسول من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[1] ومنه إلى السماء ، إلى غير ذلك مما زخر به القرآن والصحف السماوية ، ولا يقبله إلا الإيمان بالغيب، الإيمان الذي آمن بالله الذي وسعت قدرته كل شيء .

ذلك لأن الإيمان الذي يقوم على الحس والتجربة ، ويسير مع المألوف المعروف ، ويتقيد بالسنن الكونية والنواميس الطبيعية ، والحوادث التاريخية ؛ ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل ، والحواس الخمسة ، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات ، إنما هو إيمان مقيد مغلول ، وإيمان محدود مشروط ، لا يصلح للاعتماد ، ولا يساير الأديان ، ولا يتفق مع دعوة الأنبياء ، وما يطلبونه من تصديق مطلق وثقة دائمة وسرعة في الانقياد والطاعة،

---

(١) كل ذلك جاء في القرآن صراحة في سور كثيرة ومواضع عديدة .

وتفان في الجهاد والتضحية ، ولا يصلح في الحقيقة لأن يسمى إيماناً ، إنما هو علم وتطبيق وخضوع للمنطق ، وطاعة للحواس والتجارب ولا فضل فيه ، ولا يختص بالدين ، فكل عاقل في حياته يؤمن بتجاربه ونتائج استقرائه ، وما تؤدي إليه حواسه ويرشد إليه عقله .

وصاحب هذا الإيمان « الطبيعي » في عناء وبلاء مع الكتب السماوية ، والأديان الإلهية ، وفي صراع دائم مع روح الديانات ومطالبها وهو كما قال أحد العارفين[1] : « رجل خشبة لا تطاوع صاحبها في سرعة المشي ورفع الخطا بحرية و كثرة التنقلات والاتجاهات » ، وهو إما يلجأ إلى التحريف أو التأويل البعيد ، وإما يضطر إلى الإنكار والإلحاد ، بناءاً على الفجوة الواسعة بين هذا العلم الجديد والحقائق التي جاءت بها الرسل ، ونطقت بها الكتب ، وبين ما آمن به من المحسوسات والماديات والأصول التي هي مبنية على استقراء محدود ، فقال تعالى : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله[2] » .

أما المؤمن بالغيب ، المؤمن بقدرة الله المطلقة وإرادته الحرة ، المصدق للرسل في كل ما جاؤوا به ونطقوا به ، وأخبروا عن الله فهو في راحة وهدوء وانسجام ووئام مع روح هذه

---

(١) هو الشيخ جلال الدين الرومي صاحب المثنوي المشهور .

(٢) سورة يونس ٣٩

الديانات وأخبارها ، جاهد وفكر مرة ثم استراح،جاهد وفكر في الإيمان بالله وصدق الرسول وعصمته في ما يقول : « وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى [١] » ثم آمن واطمأن وصدق بكل ما جاءبه الرسول ، وصح به النقل في سهولة ويسر ، كأنه كان منه على ميعاد وكان له على أتم الاستعداد .

وقد ذكر الله هذا الفرق بين النفسيتين ، نفسية المؤمن الذي أخضع عقله للصحيح من المنقول والثابت عن الرسول ، وبين نفسية الرجل الذي يحاول أن يخضع الكتاب وما جاء به الرسل لعقله العاجز وعلمه القاصر ، ويسلط عليه التأويل البعيد فقال : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله،وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به،كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدُنْكَ رحمةً إنكَ أنت الوهاب[٢]» . وذكر نفسية الرجل الذي تعود أن لا يؤمن وأن لا يدين وأن لا يعيش إلا على المألوف المعروف الموافق لعقله ، الظاهر السطحي ، وشهواته ومصالحه فقال : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير

---

(١) سورة النجم ٣ ، ٤

(٢) سورة آل عمران ٧ ، ٨

اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين [١]» .

إن أدبنا الإسلامي، مع الأسف، ونظامنا التعليمي الديني ، وأسلوب الدعوة قد قصر تقصيراً كبيراً في الدعوة إلى الإيمان بالغيب بإيمان وحماسة ، وتساهل في دعمه وتغذيته والإلحاح عليه، وقد اتجه بعض كتابنا المعاصرين - مع مالهم من فضل في عرض محاسن الإسلام وتقريبه إلى الأذهان - إلى صياغة عقليه جديدة للدين ، يتفق فيها مع العلم الحديث والعقلية الجديدة ، فجنى ذلك ، إلى حد ومن غير إرادة، على روح الايمان بالغيب ،واعتاد الشباب الإسلامي المثقف أن لا ينشط إلا للمألوف المقرر الواقع المتكرر في الحياة الطبعية ، أما ما شذ عنه وخرج عليه ، واحتاج في تصديقه، إلى إيمان أعمق وأوسع ، واعتماد على صدق المخبر ، فانه لا يقبله إلا على مضض وجهد ، ولا ينشط له ولا يرحب به، ويرى في ذلك منافاة لما سمع وآمن به من أن الإسلام هو دين العقل ودين العلم ، ولا شك أن الإسلام كذلك ، ولا شك أن صحيح المنقول لا يناقض صريح المعقول، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ولكن العقل الإنساني طبقات ومستويات ، فعقل البدوي ينكر ما زخرت به العواصم والمدن الكبيرة في عصرنا

---

(١) سورة الحج ١١

من عجائب المصنوعات ومرافق المدنية ، وعقل العامي ينكر ما وصل إليه الإنسان في العصر الحديث من الاختراع والاكتشاف ، ومن تسخير الطاقات النووية والأقمار الصناعية ، وهكذا ، ثم إن أعلى ما يتصور من العقل النابغ له حدود يقف عندها ورسالة يقتصر على أدائها ، ولا يكلف فوق طاقته ، يعجبني في ذلك كلمة لنابغة العرب ، بل نابغة الدنيا في فلسفة التاريخ وعلوم العمران العلامة ابن خلدون قال رحمه الله :

« ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كله ، وسفه رأيه في ذلك ، واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادىء رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها ، والأمر في نفسه بخلاف ذلك ، والحق من ورائه ، ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع المعقولات ، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات ، وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات، ولو لا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به ، لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم ، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية ، فاذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا ، لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة ، وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً

من ذلك والله من ورائهم محيط ، فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر ، واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك ، فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك لأنه من طور فوق إدراكك ، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك ، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره ، فان ذلك طمع في محال ، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب ، فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق ، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه[1] » .

البعد عن الاساليب الصناعية والاعتماد على الفطرة السليمة :

ومن سمات النبوة وخصائص الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، البعد عن الأساليب الصناعية والتصنع والتكلف في حياتهم وسلوكهم بصفة عامة ، وفي دعوتهم وكلامهم وحجتهم بصفة خاصة ، وقد كان قول آخر الرسل ﷺ « قل ما اسألكم عليه

(١) مقدمة ابن خلدون ، علم الكلام ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين[1] ».
تصويراً لحال جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين ﷺ، فهم دائماً يخاطبون الفطرة السليمة والعقل العام بأسلوب فطري غير ذي عوج ، لا يتوقف فهمه على ذكاء نادر وعلم فائق وألمعية بارعة ودراسة واسعة للعلوم ، وإحاطة بالمصطلحات العلمية ، ومعرفة المنطق والفلسفة والرياضيات والفلكيات وعلوم الطبيعة، يفهمه العوام كما يتذوقه الخاص ، وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء، كل على قدر فهمه وطاقته، ويطابق حال الأمم التي تعيش على فطرتها وسذاجتها ، كما يطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة الثقافة العالية، ولا يثيرون الأسئلة الدقيقة ولا يفترضونها، إنما كلامهم كالماء الزلال السلسال الذي يسيغه كل واحد ويحتاج إليه كل واحد ، وقد أجاد شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في الإشارة إلى هذه النكتة في كتابه الفريد « حجة الله البالغة » يقول رحمه الله :

« ومن سيرتهم (الأنبياء) أن لا يكلموا الناس إلا على قدر عقولهم التي خلقوا عليها، وعلومهم التي هي حاصلة عند غيرهم بأصل الخلقة ، وذلك لأن نوع الانسان حيث ما وجد فله في أصل الخلقة حد من الإدراك زائد على إدراك سائر الحيوانات إلا إذا عصمت المادة جداً ، وله علوم لا يخرج إليها إلا بخرق

---

(١) سورة ص ٨٦ ، ٨٧ .

العادة المستمرة كالنفوس القدسية من الأنبياء والأولياء ، أو رياضات شاقة تهيىء نفسه لإدراك ما لم يكن عنده بحساب، أو ممارسة قواعد الحكمة والكلام وأصول الفقه ونحوها مدة طويلة.

« فالأنبياء لم يخاطبوا الناس إلا على منهاج ادراكهم الساذج المودع فيهم بأصل الخلقة، ولم يلتفتوا الى ما يكون نادر الأسباب قلما يتفق وجودها ، فلذلك لم يكلفوا الناس أن يعرفوا ربهم بالتجليات والمشاهدات ولا بالبراهين والقياسات ولا أن يعرفوه منزهاً عن جميع الجهات فان ذلك كالممتنع بالاضافة إلى من يشتغل بالرياضات، ولم يخالط المعقوليين مدة طويلة ولم يرشدوهم الى طرق الاستنباط والاستدلالات ووجوه الاستحسانات ، والفرق بين الأشباه والنظائر بمقدمات دقيقة المأخذ ، وسائر ما ما يتطاول به أصحاب الرأي على أهل الحديث » .

« ومن سيرتهم أن لا يشتغلوا بما لا يتعلق بتهذيب النفس وسياسة الأمة، كبيان أسباب حوادث الجو من المطر والكسوف والهالة وعجائب النبات والحيوان ومقادير سير الشمس والقمر وأسباب الحوادث اليومية وقصص الأنبياء والملوك والبلدان ونحوها ، اللهم إلا كلمات يسيرة ألفتها أسماعهم وقبلتها عقولهم يؤتى بها في التذكير بآلاء الله والتذكير بأيام الله ، على سبيل الاستطراد بكلام إجمالي يسامح في مثله بايراد الاستعارات وبالمجازات ».

« ولهذا الأصل لما سألوا النبي ﷺ عن كمية نقصان القمر وزيادته أعرض الله تعالى عن ذلك الى بيان فوائد الشهور، فقال: « يسألونك عن الأهلة . قل هي مواقيت للناس والحج » وترى كثيراً من الناس فسد ذوقهم بسبب الألفة بهذه الفنون أو غيرها من الأسباب فحملوا كلام الرسل على غير محمله والله أعلم [1] » .

وقال في ضمن بيان أسباب التيسير في هذا الكتاب .

« ومنها أن الشارع لم يخاطبهم إلا على ميزان العقل المودع في أصل خلقتهم قبل أن يتعاونوا دقائق الحكمة والكلام والأصول، فأثبت لنفسه جهة فقال «الرحمن على العرش استوى» وقال النبي ﷺ لامرأة سوداء أين الله ؟ فأشارت إلى السماء ، فقال هي مؤمنة ! ولم يكلفهم في معرفة استقبال القبلة وأوقات الصلاة والأعياد وحفظ مسائل الهيئة والهندسة ، وأشار بقوله « القبلة ما بين المشرق والمغرب ، إذا استقبل الكعبة» إلى وجه المسئلة ، وقال الحج يوم تحجون والفطر يوم تفطرون ، والله أعلم [2] » .

---

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ٨٦ طبع المنيرية القاهرة .

(٢) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٣ طبع المنيرية القاهرة .

وكذلك قال قبله حجة الإسلام الغزالي وهو يذكر فضل أسلوب القرآن على علم الكلام ، والفرق بينهما ، قال رحمه الله :

« فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع بـه كل إنسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس، ويستضر به الأكثرون بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي والرضيع ، والرجل القوي ، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً[١] » ، وقد قال الإمام الرازي ، كما ينقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية كثيراً في كتبه ، لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[٢] .

وقد أفضت في هذا الموضوع لبعد الطبائع والعقول في هذا العصر عن فهم طبيعة النبوة وسماتها ومنهاج الأنبياء وسيرتهم في الدعوة والبيان ، وفي حياتهم الخاصة وفي حياتهم مع الناس ، وطغت الأساليب الصناعية والمناهج الكلامية وأساليب الدعوة والتنظيم الحديثة حتى صار الناس في غفلة بل واستهانة بطريق الأنبياء وسيرتهم والتوى عليهم فهم القرآن ولم يستطيعوا تذوق

(١) الجام العوام عن علم الكلام ـ المطبعة الميمنية ص ٢٠ .

(٢) كتاب النبوات لابن تيمية ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

أسلوبه الحكيم ولجأوا إلى تأويلات وتكلفات ، ولا تزال سيرة الأنبياء فى الدعوة هي السيرة المثالية ولا يزال أسلوب القرآن هو الأسلوب الفطري البليغ الحكيم ، الذي يقنع العقول ويفتح القلوب في كل عصر، ويجد فيه كل جيل وكل طبقة البيان الوافي والدواء الشافي « تنزيل من حكيم حميد » .

المحاضرة الثالثة

أئمة الهدى وقادة الإنسانية

عبث القادة والزعماء بالانسانية :

لم يزل الجيل البشري في تاريخه الطويل موضوع عبث العابثين من القادة والزعماء ، أو تجربة المجربين والمجازفين من المشرعين والحكماء ، وقد عبثوا بأبناء جنسهم وعقليتهم ومدنيتهم عبث الوليد بجانب القرطاس[1] يطويه وينشره ، ويمده ويكوره ، ويمزقه إذا شاء ، ويحرقه إذا شاء، وهانت عليهم الحياة الإنسانية وطاقاتها ، وملكاتها ومواهبها ، وما أودع الله فيها من طبيعة الطاعة والتقليد والتفاني والاعتماد على القادة ، فلم يتقوا الله فيها ولم يراعوا فيها حقاً ولا حرمة ، ولا إلاً ولا ذمة ، واتخذوها

(١) ماخوذ من شعر البحتري :

ان الخطوب طوينني ونشرنني عبث الوليد بجانب القرطاس

مطية لشهواتهم ونزعاتهم ، وقنطرة إلى سيادتهم ورياستهم وتحقيق أغراضهم ،وقد جر عليها جهل هؤلاء القادة حيناً وعدم اعتصامهم من الخطأ والضلال وسوء الفهم وسوء التعبير أحياناً ، والشهوات التي ركبوا عليها ، والنزعات والأنانية ، الفردية والقومية ، والعصبية الجنسية والوطنية ، قد جر كل ذلك على الإنسانية البائسة شقاء طويلاً وويلاً عظيماً ، وأفقد الثقة بقيادتهم ، وشكك تشكيكاً كبيراً في إخلاصهم وصحة معلوماتهم وحسن قصدهم وسعادة الإنسانية تحت قيادتهم وإشرافهم ، والتاريخ الإنساني مليء بهذه المآسي والمهازل ، والمضحكات المبكيات ، ولا تزال شعوب كثيرة في الشرق والغرب تحت رحمة هؤلاء القادة الأغمار العابثين ، يلعبون بها ويتداولونها كالكرة ويجرون عليها عمليات وتجارب جديدة كثيرة ، قد يعترفون بخطئها وإخفاقها بعد قليل ، وقد يفضحها ويزيل عنها الستار ، من يتسلم القيادة منهم ويخلفهم ، وقد يسجل عليها ذلك التاريخ وتشعر به الأجيال الآتية .

الحاجة الى الانبياء المعصومين عن الخطأ :

وشر هذه التجارب المخفقة والنتائج الخاطئة ما كان في باب العقيدة والإيمانيات التي يتوقف عليها المصير ، وتتوقف عليها السعادة في الدنيا ، والنجاة في الآخرة ، والتي تشكل الأخلاق

الصحيحة وتكون المدنية الصالحة ، والعبادات التي يتقرب بها الإنسان الى ربه والشرائع التي تنظم حياته ، فالعثرة في ذلك لا تقال ، والكسر في ذلك لا يجبر .

فمست الحاجة إلى قادة أمناء معصومين من الضلال والأوهام والأخطاء ، مبرئين من كل طمع ومساومة وطلب مكافأة ومقابل وربح مادي ، لا تتغلب عليهم الشهوات ، ولا تؤثر فيهم النزعات لا يصدرون عن رأيهم ومعلوماتهم الناقصة ، وتجاربهم القاصرة ومصالحهم الخاصة ، وإذا صدر منهم خطأ في الاجتهاد والتقدير ، نبههم الله على ذلك فلم يمكثوا عليه ولم يتمادوا فيه .

أمانة وإخلاص :

ولذلك تقرأ في سورة الشعراء ، أن كل نبي يبعث على أمته يؤكد لهم أمانته وإخلاصه واقرؤوا معي الآيات التالية :

١ — « كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين[١] » .

٢ — « كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود

---

(١) الشعراء ١٠٥ — ١٠٩ .

ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين[1] » .

٣ — « كذبت ثمود المرسلين . إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . ومـــا أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين[2] » .

٤ — « كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أن أجر إن أجري إلا على رب العالمين[3] » .

٥ — « كذبت أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قـــال لهم شعيب ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين[4] » .

هذه الوحده التي تربط بين هؤلاء الأنبياء المبعوثين في أمم مختلفة وفي عصور مختلفة ذات معنى عميق ، وهو أن الأمانة وهي الكلمة الجامعة بين معاني الصدق وصحة التلقي من فوق ، التلقي من الله العليم الحكيم ، وصحة الالقاء إلى أسفل ، إلى الأمة

---

(١) الشعراء ٢٣ — ١٢٧ .
(٢) الشعراء ١٤١ — ١٤٥ .
(٣) الشعراء ١٦٠ — ١٦٤ .
(٤) الشعراء ١٧٦ — ١٨٠ .

التي يبعث فيها النبي، هو الركن الأساسي في مفهوم النبوة والرسالة ونظامها، ولا أجمع لهذه المعاني ولا أبلغ من كلمة « الأمانة » في لغة العرب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن يوصف بها الرسول العربي ﷺ قبل البعثة وألهمت أهل مكة الأمين أن يلقبوه بالصادق الأمين .

وكذلك الإخلاص والنزاهة والبعد من كل طمع والزهد في كل منفعة شخصية أو منفعة ترجع إلى الأسرة والعشيرة والأولاد، وقد اتفقت الفطر السليمة والعقول المستقيمة على حب هذا الداعية المخلص ، الناصح الأمين ، ولذلك قال صالح ، في أسف واستغراب « يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين[١] ». وقال الموجه الكريم الذي جاء من أقصى المدينة يسعى « يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون[٢] » .

وهذا هو المعنى الذي أكده موسى عليه السلام لفرعون فقال « وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على ان لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل[٣] ».

---

(١) الاعراف ٧٩ .
(٢) سورة يسين ٢٠ ، ٢١ .
(٣) الاعراف ١٠٤ ، ١٠٥ .

أمان وضمان للاتباع :

وقد كان في هذه « العصمة » والامانة والنزاهة، التي اتصف بها الأنبياء ضمان لسلامة أتباعهم وأمتهم في العقائد والشرائع ، وأمان مما استهدفت له الأمم والأجيال البشرية الماضية من الوقوع في المهالك ، والتورط في الشبهات ، والحيرة في أمر هؤلاء القادة ونتيجة اتباعهم .

حقيقة العصمة وطرقها :

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة»وهو يذكر ما يجب أن يتصف به هداة السبل ومقيمو الملل– يعني الأنبياء– سلام الله عليهم ، يقول رحمه الله:

« ثم لا بد له لهذا العالم أن يثبت على رؤوس الأشهاد أنه عالم بالسنة الراشدة وانه معصوم فيما يقوله من الخطأ والاضلال ، ومن أن يدرك حصة من الاصلاح ويترك حصة أخرى لا بد منها ، وذلك ينحصر في وجهين ، إما أن يكون راوياً عن رجل قبله انقطع عنده الكلام لكونهم مجتمعين على اعتقاد كماله وعصمته وكون الرواية محفوظة عندهم ،فيمكن له أن يؤاخذهم بما اعتقدوه ويحتج عليهم ويفحمهم أن يكون هو الذي انقطع عنده الكلام وأجمعوا عليه ، وبالجملة فلا بد للناس من رجل معصوم يقع عليه الاجماع يكون فيهم أو تكون الرواية محفوظة عندهم وعلمه بحالة

الانقياد وتوليد هذا السنن منها ووجوه منافعها وعلمه الآثام ووجوه مضارها لا يمكن أن يحصل بالبرهان ولا بالعقل المتصرف في المعاش ولا بالحس ، بل هي أمور لا يكشف عن حقيقتها إلا الوجدان ، فكما أن الجوع والعطش وتأثير الدواء المسخن أو المبرد لا يدرك إلا بالوجدان . فكذلك معرفة ملاءمة الشيء للروح ومباينته لها لا طريق إليها إلا الذوق السليم ، وكونه مأموناً عن الخطأ في نفسه إنما يكون بخلق الله علماً ضرورياً فيه بأن جميع ما أدرك وعلم حق مطابق للواقع بمنزلة ما يقع للمبصر عند الإبصار ،فإنه إذا أبصر شيئاً لا يحتمل عنده أن يكون عينه مؤقتة وأن يكون الإبصار على خلاف الواقع وبمنزلة العلم بالموضوعات اللغوية ، فإن العربي مثلاً لا يشك أن الماء موضوع لهذا العنصر ولفظ الأرض لذلك مع أنه لم يقم له على ذلك برهان وليس بينهما ملازمة عقلية ، ومع ذلك فإنه يخلق فيه علم ضروري ، وإنما يحصل ذلك في الأكثر بأن يكون لنفسه ملكة جبلية ، يكون بها تلقي العلم الوجداني على سنن الصواب دائماً ، وأن يتتابع الوجدان ويتكرر تجربة صدق وجدانه ، وعند الناس [1] ، إنما يكون بأن يصح عندهم بأدلة كثيرة برهانية أو خطابية أن ما يدعو إليه حق ، وأن سيرته صالحة يبعد عنها الكذب ، وأن يروا منه آثار القرب كالمعجزات واستجابة

---

(١) اي كونه مأموناً من الخطأ عند الناس ، يكون اذا صح عندهم أن ما يدعو اليه حق الخ .

الدعوات ، حتى لا يشكوا أن له في التدبير العالي منزلة عظيمة وأن نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة ، وأن مثله حقيق بأن لا يكذب على الله ولا يباشر معصية ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفاً عظيماً وتصيره عندهم أحب من أموالهم وأولادهم ، والماء الزلال عند العطشان ، فهذا كله لا يتحقق انصباغ أمة من الأمم بالحالة المقصودة بدونه ، ولذلك لم يزل المشغولون بنظائر هذه العبادات يسندون أمرهم إلى من يعتقدون فيه هذه الأمور ، أصابوا أم أخطؤوا والله أعلم [١] » .

جديرون بالطاعة والاتباع :

إن هذه الجماعة التي هذا شأنها في العصمة وصحة العلم ، وهذه منزلتها من الأمانة والأخلاص والنزاهة ، وقد أفرغها الله في قالب من الاعتدال والسداد ، وربّاها فأحسن تربيتها ، وأدّبها فأحسن تأديبها « ولتصنع على عيني [٢] » « أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار [٣] » ، هي الجديرة الخليقة — بحكم العقل والذوق والمنطق — بالطاعة والاقتداء والتقليد والاتباع ، ولذلك قال الله تعالى بعد ما ذكر

---

(١) حجة الله البالغة « باب الحاجة الى هداة السبيل رمقيمي الملل » ، ج ١ ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) طه ٣٩

(٣) سورة ص ٤٥ ، ٤٧

جماعة من أنبيائه المكرّمين ، وذكر ما أكرمهم به من الهداية والصلاح والفضل على العالمين ، والاجتباء والكتاب والحكم والنبوة « اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده [1] » .

محط العناية والرضا :

لقد أحاطت العناية الإلهية والقبول الرحماني بنفوس الأنبياء ، والحياة التي كانوا يعيشونها ، وشملت أخلاقهم وعاداتهم وسننهم وطرق معيشتهم ، واختار الله طريق حياتهم من بين طرق الحياة وأخلاقهم من بين أخلاق الناس ، وعاداتهم من بين العادات الكثيرة التي تعوّدها الناس ، حتى إذا سلكوا شعباً وواديا ، وسلك الناس شعباً وواديا ، كان شعبهم وواديهم أحب إلى الله من شعب الناس وواديهم ، ونفذت فيهم وفي كل ما اختاروه وأصبح لهم شعاراً وبهم خاصاً محبة الله ورضاه ، حتى أصبح تقليدهم واتباعهم واتخاذ شاراتهم وشعائرهم والتخلق بأخلاقهم والتشبه بهم ، أقرب الأسباب وأقرب الطرق وأيسرها بجلب محبة الله ، وصار من اتبعهم وتشبه بهم من المحبوبين ، فضلاً عن أن يكون من المحبين ، لأن المتشبه بالحبيب حبيب وبالبغيض بغيض ، وأصبح ذلك أصلاً من الأصول والقانون الذي لا يتبدل ولا يتغير على مر الزمان ، واختلاف المكان ، وأصبحت الدعوة

---

(١) الانعام ٩٠

إليه عامة وعلانية ، وأعلن الله تعالى على لسان خاتم النبيين ﷺ « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم[1] » ، وبالعكس من ذلك كان الميل الى الظالمين والكفار وإيثار طريقتهم والسير بسيرتهم جالباً لسخط الله والبعد عنه ، فقال : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون[2] » .

سر تفضيل عـــادات وأوضاع على عادات وأوضاع ، وحقيقة الشعائر :

وهذا السر ما تسميه الشريعة بخصال الفطرة وسنن الهدى ، وتشيد بها وتحث على الأخذ بها ، ومجموع هذه الأخلاق والعادات يحدث انصباغاً بصبغتهم وهي الصبغة التي يقول الله عنها « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون[3] » ، وهذا سر تفضيل الله عادة على عادة وخلقاً على خلق ، ووضعاً على وضع ، وهيئة على هيئة ، وهذا سر ما تتخذه الشريعة الإسلامية شعاراً لأهل الإيمان ولأهل الطاعة وسنة موافقة للفطرة ، وصده علامة للانحراف وشعاراً لأهـــل الجهل والسفاهة ، ولأهل الجاهلية والكفر ، ولا فرق بينهما ، إلا أن الأول كان شعاراً للأنبياء ومن عادتهم واختيارهم ، وفيه تشبّه بهم ، والثـاني شعار لأهل

---

(١) آل عمران ٣١ (٢) هود ١١٣ (٣) البقرة ١٣٨

الكفر وعادة من عادات الجاهلية ، ومن أوضاع الشيطان وأتباعه وتشبه بهم ، ويندرج تحت هذا الأصل كثير من آداب الأكل والشرب واللباس والزينة ، والنوم والعشرة والاختلاط وهو باب واسع من أبواب السنّة وفقه الدين .

لماذا كانت اليد اليمنى أفضل من اليسرى وخصت بالأعمال الفاضلة المستجادة كالأكل والشرب والاشارة وتناول شيء ذي بال وإعطائه ، وكل ما فيه إكرام ، وخصت اليسرى بالاستبراء وكل ما فيه لوث وإهانة ؟ وكلتا اليدين للانسان وكلتا اليدين من خلق الله وصنعه ؟ وكثير من الأمم الجاهلية ، وممن نشأ بعيداً عن تربية الأنبياء وتعليماتهم لا يفرق بينهما ، ولا يلتزم هذا الأدب، ويضع إحداهما موضع الأخرى؟ لا سبب لذلك إلا أن الأنبياء عامة – ورسول الله ﷺ خاصة – كانوا يفعلون ذلك بإلهام من الله أو بسائق من فطرتهم السليمة ، التي كانت دائماً على اتصال ومناسبة بما يرتضيه الله تعالى من الأخلاق والعادات والأوضاع ، ولماذا كان التيمن محموداً مطابقاً للفطرة السليمة ومن شعائر الحضارة الإسلامية ؟ لأنه كان من سُنّة الأنبياء عليهم السلام ومن عادات الرسول ﷺ وذوقه ، فعن عائشة قالت : كان النبي ﷺ يحب التيمن ما استطاع في شأنه كله ، في طهوره وترجله وتنعله [1] .

---

(١) صحيح البخاري .

وعلى ذلك تقاس جميع خصال الطهارة وخصال الفطرة التي نسبت في الحديث إلى سيدنا ابراهيم ﷺ .

مؤسسو حضارة وأسلوب خاص من الحياة :

إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لم يدعوا إلى عقيدة وشريعة فحسب ولم يحملوا ديناً جديداً ـ هو الإسلام ـ فحسب ، بل كانوا مؤسسي حضارة ومدنية وعشرة واجتماع وأسلوب من الحياة جديد خاص ، جدير بأن يسمى الحضارة الربانية ، ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر ،تمتاز بها عن الحضارات الأخرى ، الحضارات التي تسمى الحضارات الجاهلية ، امتيازاً واضحاً ، امتيازاً في الأساس ، وفي الروح ، وفي الأشكال والتفاصيل .

حضارة ابراهيمية محمدية :

وكان إبراهيم الخليل الحنيف ﷺ أمام هذه الحضارة الحنيفية المؤسسة على توحيد الله تعالى والإيمان به وذكره ، المؤسسة على متابعة الفطرة السليمة والقلب السليم ، المؤسسة على الحياء والأدب مع الله ، والإنابة والرحمة على بني النوع ، ورقة العاطفة ، وقد سرت أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة « إن

إبراهيم لحليم أواه منيب [1] » « إن إبراهيم لأواه حليم [2] » .
وكان إبراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة ، وكان رسول الله ﷺ وهو حفيده مجدد هذه الحضارة ومتممها ، وهو الذي بعث فيها الروح وأفاض عليها الخلود وأرسى قواعدها ، وشد بنيانها وجعلها خالدة باقية ، عالمية .

خصائص هذه الحضارة وسماتها :

« إن هذه الحضارة الإبراهيمية المحمدية ، لا تعرف الوثنية والشرك ولا تسمح به في لون من الألوان، في أي مكان وزمان، فكان أعظم دعاء إبراهيم وأكبر همه « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام [3] » ، وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً « فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به [4] » .

إنها لا تعرف التهالك على الشهوات والتكالب على حطام الدنيا والتناحر على جيف المادة والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب ، إنها دعوة لم تزل عقيدتها « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة

(١) هود ٧٥ (٢) التوبة ١٤
(٣) سورة ابراهيم ٣٥ (٤) الحج ٣٠ ، ٣١

للمتقين[1]».

إنهاحضارة لا تعرف الفصل بين الانسان والانسان،والتمييز بين الألوان والأوطان «فالناس كلهم من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم[2]» وقد قال خاتم الرسل ﷺ «ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل علىعصبية وليس منا من مات على عصبية[3]» وقال لمن هتف بالأنصار ومن هتف بالمهاجرين «دعوها فانها منتنة[4]».

إنها حضارة تعرف في العقيدة بالتوحيد، وفي الاجتماع باحترام الانسانية والمساواة بين أفرادها، وفي دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله والحياء والتواضع، وفي ميدان الكفاح بالسعي للآخرة والجهاد لله، وفي ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الإنسانية، وفي أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية، والخدمة على الاستخدام، تعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية المخلصة، وإنقاذها من براثن الجاهلية، والدعوات، المضلة الطاغية وفي العالم بآثارها الزاهرة الزاهية وخيراتها

---

(١) القصص ٨٣
(٢) سيره ابن هشام
(٣) رواه أبوداود
(٤) رواه البخاري

المنتشرة الباقيـة .

إنها حضارة عجنت مع اسم الله ومراقبته ، وصبغت بصبغة الله وقامت على أساس الإيمان فلا يمكن تجريدهـا عن الطابـع الديني واللون الرباني والروح الايماني[1] » .

دعوة القرآن الى اتباع الانبياء وحثه على تقليدهم :

إن القرآن يدعو إلى اتباع الأنبياء والأخذ بسيرتهم والسير على منهجهم العام في الحياة والتشبه بهم ما أمكن فيقول : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجـو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً[2] » ويأمر المسلمين بأن يدعو دائماً بقولهم « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ولا شك أن في مقدمة هؤلاء المنعم عليهم وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون ، وجعل هذا الدعاء في صلب الصلاة ، وكلما كان الانسان أتبـع لسننه ، وأكثر تخلقاً بأخلاقه وأشبه به هدياً ودلا وسمتاً كان أقرب إلى الله وأعلى منزلة عنده .

---

(١) رسالة « ملة ابراهيم وحضارة الاسلام » للمؤلف بتغير يسير ص ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .

(٢) الاحزاب ٢١ .

الاجلال المنبعث من اعماق القلب والحب العاطفي :

والقرآن يطلب للأنبياء الاجلال المنبعث من أعماق القلب والتوقير والتبجيل العميق والحب العاطفي ولا يكتفي بالطاعة المجردة من كل عاطفة وحب وإجلال ، كطاعة الرعية والسوقة للملوك وكثير من قادة الجنود وزعماء الأحزاب ، ولا يكتفي بدفع الضرائب وتنفيذ الأحكام ، فقال « لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه[1] » وقال « فالذين آمنوا به وعزروه[2] » ولذلك أمر بكل ما يحفظ لهم حرمتهم واحترامهم، ونهى عن كل ما يحط مكانتهم ويجرح كرامتهم، ويهون شأنهم ويفقد مهابتهم، فقال « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم[3] » وقال « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً[4] » ولذلك حرم زواج أزواجه من بعد وفاته فقال « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند الله عظيماً[5] » .

---

(١) الفتح ٩ (٢) الأعراف ١٥٧
(٣) الحجرات ٢ (٤) النور ٦٣
(٥) الاحزاب ٥٣

وقد جاءت النصوص الصريحة الكثيرة تطلب حب الرسول وإيثاره ، على النفس والأهل والولد « فقد جاء في الصحيحين : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » وكذلك « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان. من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، الحديث ».

تأثير عاطفة الحب وسر تفاني الصحابة في طاعة الرسول :

لأن الطاعة الكاملة المخلصة والتخلق بأخلاق الرسول والانصباغ بصبغته وإيثار شريعته ورضاه على هوى النفس والعادات والأعراف ، وبذل المهجة والنفس والنفيس في سبيل دعوته ، لا يتأتى إلا بهذا الاجلال المنبعث من أعماق القلب ، والحب العميق الذي يملك على الانسان مشاعره ، ويستولي على قلبه ولذلك قال «قل إن كان آباؤكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين[1]» ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم من أحرص الناس على طاعته وأسرعهم إليها وأنشطهم فيها ، وأصبرهم عليها ، ولهم في ذلك القدح المعلى والنصيب الأوفر إلى يوم القيامة ، ومنهم أبو بكر الصديق الذي

(١) البراءة ٢٤ .

كان رسول الله ﷺ أكرم عليه وأحب إليه من نفسه ، وحياته وصحته أعز عليه من حياته وصحته ، وقد ضربه عتيبة بن ربيعة بنعلين مخصوفتين وبحرفهما لوجهه ونزا على بطنه حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب لا يشكون في موته ، ولما تكلم آخر النهار قال ما فعل رسول الله ﷺ ؟ ولما قيل له إنه سالم صالح قال إن لله علي ألا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ (١) .

ومنهم المرأة الانصارية التي كان الناس يخبرونها بشهادة أعز أقاربها . أبيها وأخيها وزوجها يوم أحد ، فقالت ما فعل رسول الله ﷺ قالوا خيراً ، هو بحمد الله كما تحبين ، فلما رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل (٢) .

ومنهم عبدالله بن عبدالله بن أبي ، سمع أن والده قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فلما قدموا المدينة قام عبدالله على بابها بالسيف لأبيه ، ثم قال أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ﷺ ؟ والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله ، ولم يسمح له بالدخول حتى أرسل إليه رسول الله ﷺ يأمره بأن يخلي سبيله (٣) .

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠ (٢) ابن اسحاق والبيهقى
(٣) تفسير الطبري ج ٢٨

ولذلك كله استطاعوا أن يضعوا رؤوسهم ومهجهم على أكفهم وراحاتهم، وهانت عليهم الحياة، وطابت لهم هجرة الأوطان وهجر الإخوان، والشهادة في سبيل الله، ولذلك استطاعوا أن يقولوا عند وقعة بدر إن أمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك [1].

نتيجة ضعف عاطفة الحب في العالم الاسلامي اليوم وتأثير ذلك في الحياة :

وما ضعف العالم الإسلامي في العمل بالشريعة اليوم والتكاسل في الطاعات والابتعاد عن كل ما يشق على النفس، وما تهاون كثير من طبقة العلماء والمثقفين الثقافة الدينية الواسعة بالسنن وهدي الرسول إلا لضعف هذا الإجلال الذي اهتم به القرآن كثيراً، وضعف عاطفة الحب أو فقدانها، العاطفة التي كانت ولا تزال مصدر قوة لا نظير لها ومرد عجائب ومعجزات في التاريخ، وهو فراغ لا يملأ بأكبر مقدار من العقل والعزم والنظام، وخسارة لا تعوض بشيء.

لا فلاح لأمة بعث فيها النبي الا في اتباعه وايثاره :

وفي الأخير فإن مصير الأمم التي يبعث فيها هؤلاء الأنبياء

---

(١) قاله سعد بن معاذ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

مربوط باتباعهم والانقياد لهم، والاجتماع تحت رايتهم، والتمسك بأهدابهم والسير في ركابهم بعز عزيز وذل ذليل، فلا تفلح أمة مهما أوتيت من الحول والطول والذكاء والوسائل، ومهما تقدم الزمان وتقدمت الحضارة وتنوعت الفلسفات وتغيرت الأحوال إلا باتباع هذا النبي والحب له والانتصار لدعوته، رضيت بذلك أم أبت، وكل أمة تحاول أن تنال العزة والسؤدد والكرامة والقوة الحقيقية عن غير هذا الطريق، معتمدة على سياستها الحكيمة، أو الانضمام إلى معسكر من المعسكرات القوية، فلن يكون ذلك وليس عاقبتها إلا الذل والهوان والإخفاق الذريع والانشقاق الداخلي والخيبة عاجلاً أو آجلاً.

وضع العالم الاسلامي والعربي اليوم وسببه :

والعالم الإسلامي بصفة عامة والعالم العربي بصفة خاصة خير شاهد على ذلك، فقد كبر على هذين العالمين في الزمن الأخير اتباع الرسول النبي الأمي ﷺ وثقل عليهما إيثار ما أمر به وطلبه على ما تأمر به نفوس القادة والزعماء، واستنكفا عن الانتساب إليه والافتخار به والظهور في مظهر دينه أمام الأمم والحكومات، وآمنا بضرورة التنصل عن دينه وأحكامه وحضارته، وآمن أكثر أقطارهما بالقومية والوطنية والشيوعية والفلسفات الحديثة. وإلى الآن لم يقضيا وطراً ولم يهزما عدواً،

وهذا هو العالم العربي ، ولا معذرة ولا استعفاء ، موزع على نفسه ، لم يستطع أن يحل مشكلة فلسطين في هذه المدة الطويلة، ولم يحتل المكان اللائق به في زعامة العالم الإسلامي أو قيادة العالم الانساني ، وفي كل يوم مشكلة طريفة ، وقضية جديدة .

وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ قال لأصحابه العرب في الشام وهم كبار الصحابة وقادة الفتح الإسلامي وقد عيروه ببعض صنيعه الذي لا يتفق مع رئيس حكومة كبيرة :

« إنكم كنتم أذل الناس، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله[1] ».

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٠ .

المحاضرة الرابعة

بين الإرادة الإلهية والأسباب المادية

تفاوت ما بين الانبياء وخصومهم فى الاسباب المادية :

إن القارىء للقرآن — وهو الكتاب الوحيد الذي حفظ تاريخ الأنبياء وحوادث حياتهم وأخبار دعوتهم — يلاحظ باستمرار ووضوح ، أن الأنبياء بعثوا دائماً في بيئة مظلمة خانقة ، معارضة لدعوتهم ، ثائرة عليها ، وبعثوا في ضعف شديد وفقر تام في الأسباب ، وكان كل ما يعتز به إنسان من مال وملك وشيع وأنصار ، والأسباب المادية في جانب أعدائهم وفي كفتهم ، وتحت تصرفهم ، ولم يكن في جانب الأنبياء وكفتهم إلا الإيمان القوي الذي لا يرقى إليه شك ، والاخلاص الكامل الذي لا يشوبه طمع ونفاق ، واعتماد على الله وابتهال إلى الله ، واطراح على عتبة عبوديته ، والعمل الصالح ، والتقوى ، وحسن السيرة ، والأخلاق الفاضلة ، وزيادة إلى كل ذلك — زيادة لا

يستهان بقيمتها – الدعوة الإيمانية الصحيحة التي تكفل الله بنصرها فقال « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد[١] » ، وقال « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز[٢] » ، وقال « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون[٣] » .

شيء مقصود ومطرد مستمر :

ويبدو لقارىء القرآن أن ما حكاه الله تعالى من قصص الأنبياء والرسل وأخبار دعوتهم ، وما لقيته من معارضات ومحاربات ومؤامرات ، وتألب القوم عليها ، وتنمرهم لها ورميهم عن قوس واحد ، والحرب الشعواء التي كانت تقع دائماً بين ضعيف فقير أعزل ، وبين جماعة غنية قوية قاهرة ، تملك جميع الأسباب ، أو ملك مستبد طاغية ، ثم النتيجة واحدة دائماً ، وهو انتصار الدعوة النبوية وأصحابها على ضعفهم وفقرهم ، وهلاك الأغنياء الأقوياء والملوك الجبابرة رغم قوتهم وبطشهم ، أو خضوعهم لهذه الدعوة أو قبولهم لها، ويبدو لقارىء القرآن أنه شيء مقصود ليس من المصادفات – وقدرة الله المحيطة الشاملة لا تعرف المصادفات ولا تعرف البخت والاتفاق ، وإنما هي منطق الضعفاء الجهلاء – وأنه شيء

---

(١) المؤمن ٥١ (٢) المجادلة ٢١
(٣) الصفت ١٧١ - ١٧٣

مطرد مستمر ، وأنه دعوة إلى الإيمان بالقدرة الكاملة التي خلقت لأسباب ولا تزال تملكها وتصرفها كيف تشاء ، وتشغلها متى تشاء، وتعطلها متى تشاء ، وأنها — كما قلنا في المحاضرة السابقة — لم تعطل ولم تضعف بعد أن خلقتها ، ولم تتخل عنها بعد أن ملكتها من أرادت ، وأنها ليست في الخلق والإبداع والنصر والغلبة في حاجة إلى الأسباب ، إنه دعوة إلى الإيمان بقوة الحق وصلاحيته للبقاء ، وبضعف الباطل وسخافته وتهيؤه للانكسار والاندحار « قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد [1] » . « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون [2] » « فأما الزبد فيذهب جفاءاً ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال [3] » .

تشجيع على التجربة واطماع في رحمة الله :

وهذا النمط من القصص القرآنية دعوة إلى التوكل على الله تعالى ونصره ، وإن اختلف الزمان والمكان ، والاعتماد على الدعوة وحسن السيرة والعمل الصالح . وإن اكفهر الجو وقسا الزمان ، وإن معجزات النصر وعجائب القدرة الإلهية تتكرر، فإذا ذكر القرآن ما أكرم الله به الرسل من النصر والفتح

---

(١) سورة سبأ ٤٩ (٢) الانبياء ١٨
(٣) الرعد ١٧

المبين، وقبول الدعاء والغلبة على الأعداء ذكر ما يشجع أتباعهم والحاملين لدعوتهم على هذه التجربة ، ويطمعهم في رحمة الله ، يقول بعد ما ذكر ما أكرم الله به نبيه أيوب « رحمة من عندنا وذكرى للعابدين [١] » ، ويقول عن يونس « فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين [٢] » ، ويقول « سلام على موسى وهارون . إنا كذلك نجزي المحسنين [٣] » ، ويقول «سلام على ال ياسين . إنا كذلك نجزي المحسنين [٤] » ، ويقول بعد ما يذكر قصة لوط «نعمة من عندنا . كذلك نجزي من شكر [٥] » ولذلك لم تكن هذه القصص التي تكون جزءاً كبيراً من القرآن قصص فكاهة وتسلية أو مادة معلومات تاريخية ، إنما هي موعظة وذكرى وحث ودعوة وإرشاد وتوجيه وتقوية وتشجيع « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون [٦] » ، « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين [٧] » .

---

(١) الانبياء ٨٤

(٢) الانبياء ٨٨

(٣) ص ١٢٠ ، ١٢١

(٤) ص ١٣٠ ، ١٣١

(٥) القمر ٣٥

(٦) يوسف ١١١

(٧) هود ١٢٠

سنة الله مع جميع انبيائه :

لقد كانت هذه سنة الله مع جميع أنبيائه، فنوح يقول له قومه « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون[١] » ويقول مبتهلًا إلى الله مستغيثاً على ضعفه « إني مغلوب فانتصر[٢] » ولوط يقول لقومه « لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد[٣] ».

وشعيب يقول له قومه « ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً . ولو لا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز[٤] » وفرعون يقول عن نفسه وعن موسى في صراحة ووقاحة «ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذي هـــو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين[٥]» .

أما أممهم التي بعثوا إليها فقد كانت ذات الطول والحول وذات العدة والعتاد، وذات الزروع والضروع، وقد مر قول هود عليه السلام لقومه « واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين. وجنات وعيون[٦]» وقول صالح لقومه «أتتركون

---

(١) الشعراء ١١١ (٢) القمر ١٠

(٣) هود ٨٠ (٤) هود ٩١

(٥) الزخرف ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ (٦) الشعراء ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤.

في ما ههنا آمنين . في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين[1]» وقول شعيب لقومه «إني أراكم بخير[2]» ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ اقرؤوها مجموعة في قوله تعالى «ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين[3]».

اعظم تحد للمادية المسرفة واكبر ثورة على عبادة الأسباب:

أما قصة إبراهيم المعادة المكررة في القرآن فهي أعظم تحد لتأثير الأسباب واستقلالها ، وأعظم شاهد للاستخفاف بقوتها وأصحابها ، وأعظم دليل على ضعفها وعدم غنائها عن أربابها ، وكأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بالاستخفاف بهذه الأسباب وأربابها المدلين بها ، المقدسين لها ، العاكفين على عبادتها والاعتماد عليها ، وكأنه ، وهو رسول التوحيد وإمام الموحدين في عصره ، كانت لذته وشفاء نفسه وغذاء روحه وقرة عينه في الاستهزاء بهذه الأسباب، وعدم الاحتفال بها ، والتغلب عليها بنصر الله ، وإبطال خواصها وطبائعها المودعة فيها، وكأنه

(١) الشعراء ١٤٦ – ١٤٩ (٢) هود ٨٤ .
(٣) الانعام ٦ .

كان يلتزم في كل خطوة من خطوات رحلته الإيمانية التوحيدية الطويلة الموفقة ، أن يدوسها بقدمه ويسخر منها بعزمه ويسجل انتصاراً جديداً للإيمان على الشك ، والروح على المادة، والتوحيد على نظام الشرك ، وقد عاش طول حياته ثائراً على ما حوله من القوة والسلطان وعبادة المادة والمعدة ، والآلهة الزائفة والقوى المخيفة .

والسر في ذلك « أن العالم في عصر إبراهيم عليه السلام كان خاضعاً للأسباب خضوعاً شديداً ، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً ، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها ، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنية أخرى غير الوثنية التي أغرقوا فيها ، وغلوا من عبادة الأصنام والأوثان ، وكانت حياة إبراهيم ثورة على الوثنيتين ، ودعوة إلى التوحيد النقي الخالص ، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء ، وأنه يخلق الأشياء من عدم وأنه يخلق الأسباب ويملكها ويفصل الأسباب عن المسببات، وينزع عن الأشياء خواصها وطبيعتها ويستخرج منها أضدادها،

الله تعالى، ليس الاحراق لها طبيعة دائمة لا تنفك عنها ، إنما هي طبيعة مودعة أمانة فيها ، إذا أراد أطلق لها العنان ، وإذا أراد أمسك الزمام ، وحولها إلى برد وسلام ، فخاض فيها مؤمناً مطمئناً واثقاً ، وهكذا كان « قلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين[1] » .

واعتقد الناس أنه لا حياة إلا بالخصب والميرة والماء الغزير ، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم ، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبة تكثر فيها المياه ويتوفر فيها الخصب ، وتسهل التجارة والصناعات ، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة والعرف الشائع والاعتماد على الأسباب فاختار لأسرته الصغيرة ، المكونة من أم وابن ، وادياً غير ذي زرع، لا زراعة فيه ولا ولا تجارة، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية ومواضع الرخاء والثراء ، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ، ويعطف إليهم القلوب ، ويجني إليهم الثمرات ، من غير سبب وطريق معروف فقال : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون[2] » .

---

(١) الانبياء ٦٩ ، ٧٠
(٢) ابراهيم ٣٧

وأجاب الله دعاءه فضمن لهم بالرزق والأمن وجعل بلدهم محطاً للخيرات والثمرات « أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون[1] » « فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف[2] » تركهم في أرض لا أثر فيها لما يروي الغلة ويبل الحلقوم، فاذا بماء يفور من الرمال ويفيض من غير انقطاع يشربه الناس في سخاء ويحملونه إلى بلادهم ، ويترك أهله في بلد قفر لا أنيس فيه ، فإذا به يصبح مكاناً يؤمه الناس من كل صوب ويأتون إليه من كل فج عميق .

وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدياً للمادية المسرفة الشائعة في عصره وعبادة الأسباب ، واتخاذها أرباباً من دون الله ، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة ، وإن إرادته فوق كل شيء ،وهكذا كانت سنة الله معه يخضع له الأسباب ويخلق له ما تحار فيه الألباب[3] » .

تحدي قصة موسى للعقل المادي الضيق :

وتلي قصة إبراهيم قصة موسى في تحديها الصارخ للعقل المادي

---

(١) القصص ٥٧

(٢) سورة قريش ٣ ، ٤ .

(٣) للمؤلف في مجلة « المسلمون » ص ١٨٠ ، ١٨١ العددان ٧ ، ٨ سنة ١٣٨١ هـ .

الذي ينظر إلى الأسباب والحوادث كقوانين أبدية جـامدة طبيعية لا سلطان عليها لأحد، وقوى قاهرة تحكم ولا يحكم عليها، وجاءت محنة وبلاءاً للذين ضاق تفكيرهم وكلت أبصارهم عن أن تنظر إلى مـا هو وراء الأسباب وإلى من هو فوق الأسباب، وهنا أستعير ما كتبت في مقالة لي سابقة أستعرض قصة موسى في القرآن وما فيها من عبرة وذكرى.

« يولد موسى في مصر في بيئة قاتمة خانقة، قد انطبقت على بني إسرائيل كل الانطباق، وسدت في وجوههم المنـافذ والأبواب، حاضر شقي ومستقبل مظلم، قلة عدد، وفقر وسائل، وذلة نفوس، عـدو قاهر، وسخرة ظالمة، لا قوة تدافع ولا دولة تحمي، أمة مصيرها معلوم محتوم قد خلقت للشقاء والفناء.

ويولد موسى، وولادته وحياته كلها تحد لفلسفة الأسباب ومنطق الأشياء، أراد فرعون أن لا يولد فولد، وأراد أن لا يعيش فعاش، يعيش في صندوق خشبي مسدود، وفي ماء النيل الفائض، وينشأ في حضانة العدو ورعاية القاتل، ويجد به الطلب القوي الساهر، فيفلت وينجو ويأوي إلى ظل شجرة كئيباً غريباً فيجد الضيافة الكريمة، والزواج الحبيب، ويرجـع بأهله فيلفـه الليل المظلم، والطريق الموحش، وتتمخض زوجه فيطلب لها ناراً تصطلي بهـا فيجد نوراً يسعد به بنو إسرائيل

ويهتدي به العالم ، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة ، فيجد النجدة والمدد للإنسانية كلها ، ويكرم بالنبوة والرسالة .

ويدخل على فرعون في أبهته وسلطانه ، وفي ملئه وأعوانه وهو المطلوب بالأمس قد تحققت عليه الجناية ، وتوجهت إليه الدعوى ، وفي لسانه حبسة ، وفي موقفه ضعف ، فيقهر فرعون وملأه بدعوته وإيمانه ، وحجته وبيانه ، ويلجأ فرعون إلى سحرة مصر ليقهر بفنهم معجزة موسى التي ظنها فناً وسحراً ، فإذا بالسحرة خاشعون خاشعون ، يقولون « آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون[1] » .

ويؤمر بالخروج ببني إسرائيل والإسراء في الليل من أرض الظلم إلى أرض النجاة ، ويتبعه فرعون بجنوده ، ويصبح موسى ، والبحر أمامه ، والعـــدو من ورائه ، ويخوض البحر فينفلق ويكون كل فرق كالطود العظيم ، ويعبر موسى وقومه ويتبعهم فرعون بجنوده فيلتهمهم البحر الهائج .

وهكذا يهلك فرعون وقومه الأقوياء الأغنياء ، ويملك بنو إسرائيل الضعفاء الفقراء « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك

---

(١) الشعراء ٤٧ ، ٤٨

الحسني على بني إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون[1] » .

مخالفة قصة يوسف للمألوف المعروف :

ولا تقل قصة يوسف في الغرابة ومخالفتها للمألوف المعروف من جريان الحوادث على السنن الطبيعي ، خاضعة لقانون العلة والمعلول والسبب والمسبب . فقد اجتمع له من حسد الإخوة وكيدهم له والبقاء في غيابة الجب مدة في الزمان ، والتقاط السيارة له والرق ، ما هو كفيل بالتعرض للهلاك والأذى والهوان . ولكنه يخرج من كل هذا سليماً معافى ، ويعيش ، ويجتمع له من الوقوع في امتحان شديد ، في العفة والنزاهة والوفاء والشرف ، ويعتصم مع توفر الدواعي القوية والمغريات القاهرة والاغراء ، من شباب وجمال وطلب وإلحاح شديد من جانب ، له الفضل وله السلطان وله الاستهواء ، والتصاق التهمة الشنيعة به ، والدخول في السجن في تهمة خلقية ، وفي عصر لم يكن السجن فيه إلا رمزاً للجريمة ، ولم يكن إلا مكان الأشقياء ومن سوء القالة والأحدوثة في البلد ، وقد كان زيادة على كل ذلك غريباً عن مصر لا يتصل بها بجنسية ووطنية ، وكان فرداً

(١) الأعراف ١٣٧ منقولة من رسالة « ثورة في التفكير » للمؤلف

من شعب ينظر إليه المصريون باحتقار واستخفاف كبير، وكان الإسرائيلي آخر من يفكر فيه لشرف أو حكومة في مصر، كل ذلك كفيل بإخمال ذكره وإضعاف شأنه وإساءة شهرته وحرمانه من كل ثقة وتكريم، وبعده عن كل مركز محترم ومكان مرموق في المجتمع المصري، فضلًا عن أمارة وسيادة، فضلًا عن تقليد منصب جليل، لا يحظى به إلا السيد الكريم، الحفيظ العليم، فضلًا عن أن يكون سيد مصر المطاع يأمر وينهى ويرجى ويخشى، ولكن عكس ذلك يقع بين سمع الناس وبصرهم ويتربع يوسف على أريكة مصر، ويتقلد مفاتيحها وزمام الأمور فيها «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا من نشاء، ولا نضيع أجر المحسنين[1]».

مماثلة بين قصة يوسف ومحمد ﷺ :

إن آخر الرسل ﷺ ومن آمن به ووضع يده في يده من أفراد قريش كانوا يواجهون مثل هذه الأجواء القاتمة، ومثل هذه المشكلات، قلة عـــدد، وضعف شأن، وفقد أسباب، وخذلان من العشيرة، ومحاربة شديدة من القوم، ومقاطعة

---

(١) يوسف ٥٦ .

وتطويق ، وإحصار وتضييق وصد عن سبيل الله ، وتعذيب شديد للمهتدين الذين كانوا يسمونهم « الصابئين » و « السفهاء » ، وتآمر على قتل الرسول ، ذعر دائم وخوف قائم ، ولا بيان أبلغ من بيان القرآن ، ولا تصوير أدق وأصدق من تصويره ، « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس [1] » .

تبشير لرسول الله بالنصر الكريم والمستقبل العظيم :

في هذه الأجواء القاتمة التي لا تثير أملًا ولا تبشر بمستقبل ، ولا يرى فيها وميض من النور ، قص الله على رسوله قصة يوسف ، وسيرته ﷺ من أشبه السير به ، وقصته مع قبيلته قريش كقصة يوسف مع إخوته ، حسد ومحاربة في البداية ، واعتراف وإجلال وندم في النهاية ، وإبعاد وإقصاء ، ونكران وجفاء في الأول ، وخضوع والتجاء واستعطاف واستجداء في الآخر ، وغيابة الجب في محنة يوسف ، وغار ثور في رحلة محمد ﷺ ، وسجن في قصة ابن يعقوب وشعب أبي طالب في قصة ابن عبد المطلب ، وتقرير وإعلان من أعداء كل واحد منهما « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين [2] » والجواب الرفيق

---

(١) الأنفال ٢٦

(٢) يوسف ٩١

الكريم من كلا السيدين الرفيقين الكريمين « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين [1] » وقد بدأ القرآن هذه القصة العظيمة بقوله « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين [2] » وختمها بقوله « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون [3] » .

وهكذا نزلت هذه السورة في جو مكة الثقيل المظلم ليبشر رسول الله ﷺ بمستقبله العظيم المشرق الزاهر ، فكأن قصة يوسف قصته ، ولم تزل الكناية – في الجو المعادي الرهيب – أبلغ من التصريح دائماً .

انتصار مقرون بانتصار الامة :

ثم قص الله عليه ﷺ قصة موسى مع فرعون وملئه، القصة التي قصها في سورة القصص ، وهي قصة فوز موسى وسلامته من فرعون وكيده وتشرفه بالرسالة العظمى والنبوة الكريمة ، وهو لا يطمع إلا في نار يصطلي بها وتتدفأ بها زوجه ، وهلاك العدو ونجاة بني إسرائيل وفوزهم وسيادتهم ، وقد افتتح هذه القصة

---

(١) يوسف ٩٢
(٢) يوسف ٩٣
(٣) يوسف ١١١

بمقدمة مجلجلة عظيمة ، كانت جديرة بأن تخلع قلوب الأعداء من قريش وتملأها هيبة وإشفاقاً من مستقبل هذه الجماعة المؤمنة الصغيرة الضعيفة ، التي كانت قريش لا تحسب لها حساباً ، وكانت تريد أن تلتهمها التهاماً فقال « طسم ، تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون[1] » .

مصدرة القوة والثقة والامل، للدعاة والعاملين والمؤمنين الصالحين :

ولم تكن هذه القصص البليغة القوية تسلية وتقوية لقلب الرسول ﷺ فحسب، كما قال « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين[2] » بل كانت ولا تزال هذه القصص الصادقة مصدر القوة ورباطة الجأش والأمل المشرق الوطيد ، والثقة القوية بالنجاح والفوز والفلاح والانتصار على المعارضين ، للدعاة والعاملين الذين يعملون على نهج النبوة وعلى طريق الأنبياء ،

---

(١) القصص ١ - ٦ (٢) هود ٢٠

ويقومون بالدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح وتقوى الله ، ويصبرون على الأذى ويثابرون على الجهاد ، ويرابطون في سبيل الله، وقد قال الله تعالى في قصة موسى « وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وما كانوا يعرشون[1] » وقال يوسف مجيباً معللاً لما أكرمه الله به من النجاح الخارق للعادة » قال أنا يوسف وهذا أخي قد مَنّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين[2]» وليعلموا أن هذه سنة الله التي لا تتخلف ، وأن الدعوة والكفاح على منهاج الأنبياء والإيمان والعمل الصالح والطاعة ، والصبر والسيرة الحسنة الفاضلة شجرة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وأن الفرد الضعيف مع هذه الصفات قوي ، وأن العدد القليل مع هذه الأخلاق كثير « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين[3]» «ولا تهنوا ولا تحزنوا ، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين[4] ».

ولم تكن هذه القصص مصدر القوة والعبرة للأجيال بعد الأجيال إلا بهذا الأسلوب الإيماني القوي ، وإلا إذا كانت دليلاً على أن دعوة الأنبياء هي التي يكتب لها الانتصار والازدهار ،

---

(١) الاعراف ١٢٧
(٢) يوسف ٩٠
(٣) البقرة ١٤٩
(٤) آل عمران ١٣٩

وإن الصفات والسيرة والأخلاق التي يرضاها الله هي التي يقدر لها الفوز والفلاح ، مهما عارضتها الأسباب وتألفت ضدها القوى وتداعى عليها الأعداء ، ومهما ضعف أصحاب هذه الدعوة النبوية والسيرة المرضية ماديا « لقد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار[1] ».

إما الايمان بدعوة الأنبياء واما الهلاك والدمار :

إن سيرة الأنبياء التي حكاها الله تعالى في كتابه في إجمال تارة وفي تفصيل أخرى ، وذكرها مراراً وتكراراً ، تجمع بينها نقطة لا تختلف . وهي انتصار دعوتهم على جميع المعارضات وفوزهم على أعدائهم ، إما بإيمان هؤلاء الأعداء وقبولهم للدعوة وإخلاصهم لها وتفانيهم في سبيلها ، وإما بهلاكهم ودمارهم «فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين[2]».

لا قيمة للمصالح الفردية والقومية :

وهذه منزلة هذه الدعوة عند الله التي تتوقف عليها سعادة الإنسانية ونجاتها ، يخرق الله لها أحياناً نواميس الفطرة وكثيراً من القوانين الطبيعية ويحدث ما لا يخطر على بال ، أما المصالح

---

(١) آل عمران ١٣ (٢) الانعام ٤٥ .

الفردية أو القومية أو حب العلو والسيادة والطموح والكبرياء ، والزعامات الزائفة التي لا تبني خيراً ولا تهدم شراً وليس للإسلام والإنسانية فيها مصلحة ، وليس لها مع قوى الشر ومع الفساد والكفر والفسوق نزاع ، إنما تسعى وتناضل لأن يكون كل هذا الفساد وكل هذه المعاصي تحت سيطرتها وإشرافها ، وفي ولايتها وحضانتها ، وأن يعود نفعها إليها ، فلا قيمة لها عند الله ولا تعدل عنده جناح بعوضة ، ولا يبالي الله في أي واد هلكت وأي عدو تسلط عليها ومتى يفاجئها الموت أو ثورة عارمة جبارة لا ترحم ولا ترثي ، وأزمات ومشكلات لا أول لها ولا آخر .

التفكير الخاطىء السائد :

إن التفكير السائد مع الأسف اليوم في الشعوب الإسلامية ، وفي أنحاء العالم الإسلامي ، والمنطق المقبول الذي خضعت له جميع الطبقات وآمنت به إيماناً راسخاً ، هو أن الميزان الفاصل هو القوة المادية مع كل سيرة وخلق ، ومع كل عقيدة ومنهج للحياة ، وأصبح من عقيدة العاملين وحتى دعاة الدين وهتافهم « المادة قبل كل شيء » وهذا المبدأ هو الذي تنقضه وتبطله سيرة الأنبياء المرسلين ، وما جرى لهم من الحوادث وما ظهر على أيديهم من العجائب والمعجزات ، وما أكرمهم الله به من النصر والفتح المبين ، وما فعل بأعدائهم .

وهنا أستعير مرة ثانية ما قلته في رسالتي «ثورة في التفكير »

« منذ مدة طويلة بـدأنا نزن أنفسنا وقيمتنا ومكانتنا في خارطة العالم بهذه « الطاقات » و « الإمكانيات » وبما نملكه من الوسائل ، والمواد الخام وحاصلات البلاد ومنتجاتها ، وعدد النفوس والقوة الحربية فنرى كفتنا راجحة في أقليم ، طائشة في آخر ، راجحة في حين ، طائشة في حين آخر .

ومنذ مدة طويلة آمنا بسيادة الغرب وقيادته ، وأنـه أمر مقرر وواقع ليس منه مفر ، وآمنا بأنه وضع لا يقبل التحول والتطور وتجدد المثل القديم وأصبح عقيدة شائعة « إذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تصدق » .

وأصبحنا لا نفكر في معـارضة الغرب ومناقشة سيادته وجدارته للسيادة ، وإذا فكرنا في ذلك — على حين غفلة من العـلوم والدراسة والعقل والكياسة — استعرضنا طاقاتنا ووسائلنا والقوة الحربية في بلادنا، وسهمنا من المخترعات الحربية والطاقات الذرية ، فاستولى علينا اليأس والتشاؤم ، وآمنا بأننا لم نخلق إلا للخضوع والخنوع ، والعيش على هامش الحياة وعيالاً على الغرب ، مرتبطين معقودي النواصي بأحـد المعسكرين المتنافسين [1] » .

سلاح المؤمن ومفتاح النجاح والايمان والطاعة :

ولكن ما قص الله علينا من سيرة الأنبياء ومصير أعدائهم

(١) ثورة في التفكير ص ٢ ، ٣

في القرآن، وقد عرضنا بعض أمثلتها الرائعة في هذه المحاضرة ، تعارض هذا التفكير على الخط المستقيم ، وتبين لنا بوضوح أن سر انتصارهم والسلاح الذي واجهوا به أعداءهم وانتصرت به جماعتهم الصغيرة المستضعفة . وتبوأت الإمامة والزعامة في العالم هو « الإيمان » و « الطاعة » و « الدعوة إلى الله » « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون [١] » و « أوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين [٢] » « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم [٣] » « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ، وأنتم الأعلون والله معكم وان يتركم أعمالكم [٤] » .

لا مستقبل للأمة الاسلامية الا في طريق الانبياء :

هذه رسالة هذه القصص الحكيمة البليغة الصادقة ، وهذا هو الدرس الحكيم الذي تلقيه علينا حياة الأنبياء وسيرتهم الفاضلة ، وهذا هو المنهج الرشيد الذي سار عليه الأنبياء من غير استثناء وسجله عليهم القرآن، ولا أمل للأمم الضعيفة إلا في هذا المنهج، ولا مستقبل للأمم التي تؤمن بالمبادىء وتحتضن الدعوات إلا في هذا الطريق ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

---

(١) ألم السجدة ٢٤
(٢) يونس ٨٧
(٣) سورة محمد ٧
(٤) محمد ٣٥

المحاضرة الخامسة

عظمة البعثة المحمدية

نكبة العصر الجاهلي :

لم تكن نكبة الجاهلية ــ هذا العصر الذي أطبق المؤرخون على انحطاطه وسواده ــ انتشار الكفر والفجور ، والمعاصي والآثام ، والظلم والطغيان، وإهدار كرامة الإنسان والاعتداء على حقوقه ، وتغلب الحكومات الجائرة والملوك الجبابرة ، ولم تكن نكبتها قلة عدد الصالحين العابدين لله وضعفهم ، وكل ذلك ما يؤسف له ، ولكنه وقع مراراً في تاريخ الإنسانية الطويل ، وعالجه رجال الإصلاح والدعوة وأهل الضمائر الحية والعزائم القوية في عصورهم .

ولكن نكبة الجاهلية التي جاءت لإزالتها والتغلب عليها البعثة المحمدية التي اختارها الله لمعالجة أعظم نكبة ونكسة

للإنسانية ، هي فقدان العلم الصحيح من العالم والإرادة الخيرة ، وفقدان الجماعة التي تنتصر للحق وتحارب الباطل، وتصارع الشر وتبني عالماً جديداً .

فقدان العلم الصحيح :

لقد فقد العلم الصحيح الذي يعرف به الإنسان ربه معرفة صحيحة ويصل به إلى خالقه ، ويعبد به عبادة خالصة مرضية ، حتى إذا وجدت الإرادة الصحيحة القوية والطلب الصادق لم ينتفع به صاحبه ، وكل علم وجد في هذا العصر مشوب بالجهل ممزوج بالخرافة ، محرف عن الأصل ، خطؤه أكثر من صوابه ، وضرره أكبر من نفعه .

فقدان الارادة الخيرة القوية :

وإذا وجد هـذا العلم الصحيح على ندرته في صدر من صدور العلماء ، أو في كتاب من كتب الحكماء ، أو كأثارة من علم نزل قديماً من السماء . لم تجـد الإرادة الخيرة القوية التي تلتقطه من مكانه ، وتعض عليه بالنواجذ وتتغلب به على شهوات نفسه ومعارضة بيئته ، فقد فقدت عاطفة الطلب لله والبحث عن الحق ، وكلت العزائم والقوى في هذا الطلب ، وانصرفت إلى طلب المعاش وإرضاء الشهوات وتحقيق مطالب النفس ، وطاعة

السلاطين العمياء ، والاستماتة في سبلهم ، وانطفأت جذوة الحب وبردت مجامر القلوب . واستحوذ عليها حب الدنيا ، وما بقي من مظاهر الدين فإما وثنية خرافية ، وإما تقاليد سطحية .

فقدان الجماعة التي تنتصر للحق :

« وإذا وجد العلم الصحيح والإرادة الخيرة لم توجد الجماعة التي يلتجئان إليها في الشدة، ويستمدان منها القوة عند الضعف، فضاعا في جهود فردية وإصلاحات شخصية، وكان هؤلاء الأفراد – الملتجؤن إلى الكنائس والأديار أو المغارات وقلل الجبال – مصابيح احترقت ذبالتها ، ونفـــد زيتها ، وخفت نورها ، أو كيراعات تطير في ليلة شاتية مطيرة مظلمة ، لا يهتدي بها المسافر التائه ، ولا يتدفأ بها الفقير المقرور .

الحاجة الى طلوع شمس جديدة :

أما العلم الصحيح الذي يهدي الناس إلى فاطر هذا الكون وصفاته اللائقة بـه وأسمائه الحسنى ، ويصلهم به صلة جديدة قوية ، ويملأ العقول يقيناً جديداً، والقلوب حباً شديداً ، وينفي تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الشك إلى اليقين ، فلم يكن إلا علماً محفوظاً غضاً طرياً منزلاً من السماء حديث عهـد بربه ، وكانت النبوة

الجديدة وحدها هي التي تستطيع – بإذن الله – أن تغير هذا الوضع الفاسد المحيط بالإنسانية كلها، ويودع أهل الشرك والوثنية من خرافتهم ، وأهل الكتب من اليهود والنصارى والمجوس من تحريفهم وجهالتهم ، ويعترفون هم جميعاً – إذا أنصفوا وخافوا الله – بأن النجوم قد أفلت ، وأن شمساً جديدة قد طلعت ، وأن الصباح قد أغنى عن الصباح « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة [1] » .

تعاون الفلسفة والوثنية على اضعاف الايمان واضلال الانسان :

وكانت الإرادة الخيرة القوية خاضعة دائماً للعلم الصحيح والإيمان القوي ، فإذا آمن الإنسان بحقائق وآمن بضار ومنافع وخاف ورجا ، ورغب ورهب تبعت ذلك إرادته وطاوعته أعضاؤه واستجابت له قواه ، ولكن فقد الإيمان القوي في العصر الجاهلي وشك الانسان في وجود الله وفي وجود الآخرة وفي وجود الجنة والنار ، وفي نتائج أعماله وتصرفاته ، وتعاونت الفلسفة والشرك على إضعاف هذا الايمان وإضعاف رابطة العبد وربه ، أما الأولى فبالالحاح الشديد على نفي الصفات ، وأما

(١) سورة البينة ١ – ٣ .

الثاني فيصرف هذه الصفات إلى المخلوقات ، فمن آمن بالأولى لم ير حاجة للالتجاء والخوف والطمع من هذا الخالق الذي تجرد عن كل صفة وعن كل قدرة ، وعن الرحمة والمحبة ، ومن آمن بالثاني تشاغل بالمخلوقات والالتجاء إليها ولم ير حاجة أو لم يجد فراغاً للالتجاء إلى رب لا يرى بالأبصار ، قد تنازل لكثير من خلقه في أمور العباد .

وهكذا توزع العالم في معسكرين معسكر لا يجد في نفسه اندفاعاً وداعية للالتجاء والدعاء والسعي للآخرة ، ومعسكر لا يجد فرصة للسؤال من رب الأرباب ، ووجد كلاهما مرتعاً خصيباً في العصر الجاهلي ، وهكذا ضاعت الانابة المودعة في قلب الإنسان،وضاعت القوى الغنية المودعة في أعضاء الانسان، في جحود وخمود ، وفي وثنية وخرافة ، وفي عبادة النفس والسلطان ، والطاغوت والشيطان ، وعكف العالم الانساني كله من الشرق إلى الغرب على عبادة أصنام وآلهة قد تخيلها أو توارثها ، أو مقاصد وغايات ومثل عليا في الحياة قد اخترعها وفرضها على نفسه، وحق عليهم كلهم قول إبراهيم قال « أتعبدون ما تنحتون[1] ».

لا يغير الوضع الجاهلي الا الايمان النبوي القوي العالمي :

ولم يكن لغير نبي مؤيد من الله صاحب قوة قدسية وشخصية

(١) الصافات ٩٥ .

نبوية أن يعيد هذا الإيمان الضائع ، المفقود من قرون متطاولة إلى قلب الإنسان ، ويشغله بطلب جديـــد وحب جديد ، ويصرف إرادته القوية من طلب الدنيا الحلوة الخضرة ، وتحقيق مطالب النفس العزيزة اللذيذة ، وإرضاء السلاطين الأقوياء الأغنياء ، إلى طلب الله تعالى الذي لا تدركه الأبصار ، وإفناء قواه في مرضاته ، وبذل المهجة والنفس والنفيس في سبيله إيماناً بموعوده وطمعاً في ثواب الآخرة ، إنه يحتاج إلى إرادة لا تثنيها الجبال ، ولا توهنها معارضة الجن والأنس ، « لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه[1] » إرادة اقتضتها الرحمة الإلهية بالإنسان ، فلا بد أن تقوى وتتحكم ، ولا بـد أن تتحقق وتتم ، إنه يحتاج إلى إيمان لو وزع على العالم كله وعلى الإنسانية كلها لوسعها ، ويبدل شكه يقيناً ، وضعفه قوة ، إيمان كان ينطق على لسان صاحبه في ساعة تخرس فيها الألسن وتزيغ فيها الأبصار ، وقد قام الأعداء الألداء على وجه الغار ، ويقـول لا تحزن إن الله معنا[2] » وكان يرى من أمد بعيد وفي ظلام شديد ، في يد سراقة الفقير البدوي سواري كسرى إمبراطور فارس ، وكان يرى في جوع قدمس ، وحصار قد طال ، في شرارة صخرة الخندق التي كسرها القصر

(١) من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤٣ .
(٢) سورة التوبة ٤٠

الأبيض لقيصر الامبراطور الثاني، إنه لا يمكن تغيير هذا الوضع الجاهلي العالمي وإعادة الحياة واليقين والحماسة الدينية إليه إلا بهذا الإيمان القوي النبوي، وإلا بهذه الارادة الالهية للانسان بالخير «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين[1]» هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون[2]».

الحاجة الى أمة تبعث للاصلاح والكفاح الدائم :

وكان هذا الفساد أعظم وأوسع من أن يتداركه أفراد منتشرون ومصلحون موزعون، أو عصابة قوية أو مؤسسة غنية، فقد اتسع الخرق على الراقع، وطم الوادي على القرى، إنما كان ذلك عمل أمة تبعث وتتصل وتستمر وتكافح وتناضل وتنتشر في أرض الله، وتتحدى الباطل أينما كان، وتجتث الشر أينما وجد، وتملأ أرض الله قسطاً وعدلاً، كما ملأت ظلماً وجوراً، وكان العالم في حاجة إلى بعثة نبي من أعظم الأنبياء مقرونة ببعثة أمة من أقوى الأمم، وهكذا كان، «كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله[3]».

---

(١) الصافات ٩ (٢) الصف ٩

(٣) آل عمران ١١٠

هذه كانت البعثة المحمدية – أيها الأخوان – جاءت في أوانها وفي شدة حاجة الإنسانية إليها « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير[1] » .

تأثير البعثة المحمدية :

« وإذا بهذه الجثة البشرية الهامدة – التي كانت تسمى النسل الإنساني – يدب فيها دبيب الحياة . وإذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازاً تتزلزل به أوكار الطيور التي قد عششت عليها ، وباضت وفرخت ، وهي تحسب أنها ميتة لا حراك بها ، وإذا بيوت العناكب تتفتت وتتساقط ، وذلك ما يعبر عنه أصحاب السير والروايات في لغتهم المحدودة بارتجاج أيوان كسرى وخمود نار المجوس ، أما رأيتم كيف تتناثر المباني المجصصة والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الأرض فيضطرب بها ظهر الأرض ، فكيف لا تزلزل نظم كسرى وقيصر ، وما بناه فراعنة العصر ببعثة النبي الأعظم ﷺ وطلوع فجر السعادة والعدل في العالم[2] » .

---

(١) الحج ٥ ، ٦

(٢) معقل الانسانية للمؤلف ص ٢ ، ٣

مولد عام جديد :

لم يكن مولد رسول الله ﷺ وبعثته مولد نبي فحسب ، أو مولد أمة فحسب ، أو مولد عصر فحسب ، إنما كان مولد عالم جديد بدأ من ولادته وبعثته ، وسيبقى إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها ، وقد تسربت آثار بعثته إلى هذا العالم وتغلغلت في أحشائه ، وخضع لها هذا العالم في عقيدته وفي أسلوب تفكيره ، وفي مدنيته ، وفي أخلاقه واجتماعه ، وفي علمه وثقافته ، حتى لا يمكن تجريده عنها ، ولو جرد منها لحرم أغنى ثروة يملكها وأعظم قوة يعتز بها ، ولنكص على أعقابه ، ورجع إلى الوراء ، وهو يدين له في حياته لأن بعثته ﷺ هي التي منحته حق الحياة ومدت في أجله ، وغلبت قوى الخير على قوى الشر ، وأنقذته من سخط الله الذي أحاطه ولعنة الله التي حقت عليه ، والشؤم الذي أظله ، وكان جديراً – قبل بعثته – بأن يطوي بساطه وينقض أساسه « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا ، لعلهم يرجعون [١] » إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب [٢]) .

تصوير للعصر الجاهلي :

ومـــاذا رأى في الأرض – وهو العليم الخبير – لم ير إلا

---

(١) سورة الروم ٤١ (٢) حديث شريف

ساجداً لوثن أو عابداً لبطن وخاضعاً لسلطان أو مطيعاً لشيطان، أما الدين الخالص ، أما الطلب الصادق ، أما العلم الصحيح والعمل الصالح ، أما الإخبات إلى الله ، والسعي للآخرة فأندر من الكبريت الأحمر وأغرب من العنقاء المغرب ، وصدق شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي إذ قال ، ولم أر تصويراً أدق للجاهلية منه .

« إعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قروناً كثيرة ، وخاضوا في لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان وتعمقوا في فراق المعيشة وتباهوا بها ، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها، فما زالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها ، حتى قيل انهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن [٣] وحمام وبساتين ، ولا يكون لهم دواب فارهة وغلمان حسان ولا يكون له توسع في المطاعم وتجمل في الملابس ، وذكر ذلك يطول ، وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم ، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع وتولد من ذلك داء عضال، دخل في جميع أعضاء المدينة

---

(٣) فسقية

وآفة عظيمة ، ولم يبق منهم أحـــد ، من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم، إلا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاء لها ، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة ولا تحصل إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم،والتضييق عليهم ، فان امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل في النضح والدياس والحصاد، ولا تقتني إلا ليستعان بها في الحاجات ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ولا يستطيعون ذلك ، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه [1] » .

اتجاه عالمي جديد :

وقد غيرت البعثة المحمدية هذا الوضع وقلبته رأساً على عقب، فاكتسحت العالم المتمدن كله . موجة قوية من الإيمان والطلب لله ، والجهـاد في سبيله والسعي للآخرة وإدالة الإنسانية مـن أعدائها ، وإنهاض الأمم من كبوتها ، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، واتجهت إلى هذه الغاية هم أهـل العزائم وكفاية أهـــل المواهب ، وذكاء الأذكياء ، وسليقة

(١) حجة الله البالغة (باب اقامة الارتفاقات واصلاح الرسوم) .

الأدباء ، وقريحة الشعراء ، وسيوف الأقوياء ، وأقلام العلماء ، وعبقرية النبغاء ، وكثر في هذا العالم الذي لم يكن يعرف غير ضرب واحد وغير طراز واحد من الإنسانية ، وهو عابدالنفس وأسير الشهوة وصريع الهوى ، كثر في هذا العالم في كل عصر وفي كل بقعة عباد مخلصون ، وعلماء ربانيون ، وحكام عادلون ، وملوك زاهدون ، وأبطال مجاهدون ، لا يحصيهم كـــثرة من أحصى رمال عالج وحصى البطحاء ، يباهي بهم الله الملائكة ويقف أمامهم التاريخ خاشعاً ، والأعداء مقنعي رؤوسهم ، وانتشر العلم الصحيح النافع ، والعمل الفاضل الصالح ، والإرادة الخيرة القوية ، والجماعة المؤمنة المجاهـدة ، التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتجاهد في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم ، واتصل تاريخ الإصلاح والجهاد والدعوة والإرشاد لا تتخلله فترة « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون[1] » .

الامة المحمدية معجزة الرسول :

وقد أحسن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تصوير أثر البعثة المحمدية وفضلها وإنتاجها في كتابه « الجواب الصحيح » يقول رحمه الله :

---

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ١٠٨٧ .

وسيرة الرسول ﷺ من آياته ، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياتــه ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته ، وكرامات صالحي أمته من آياته ».

ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها ، من الصدق والعدل والوفاء ، لا يحفظ له كذبة واحدة ولا ظلم لأحد ، ولا غدر بأحد ، بل كان أصدق الناس وأعدلهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم ، وأمن وخوف ، وغنى وفقر ، وقلة وكثرة . وظهوره على العدو تارة ، وظهور العدو عليه تارة ، وهو على ذلك كله ملازم لأكمل الطرق وأتمها ، حتى ظهرت الدعوة في جميــع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ومــن أخبار الكهان وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق وسفك الدماء المحرمة وقطيعة الأرحام ، لا يعرفون آخرة ولا معاداً ، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم ، حتى إن النصارى لما رأوهم من حين قدموا الشام قالوا ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء ، وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق مــا بين الأمرين .

وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة ، فإذا قيس علمهم بعــلم سائر الأمم ظهر علمهم ، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ، ظهر أنهم أدين من غيرهم ، وإذا قيس شجاعتهم

وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله ، ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً ، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم لغيرهم تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم ، وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلموها وهو الذي أمرهم بها ، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة ، وكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم ، بعضها من التوراة وبعضها من الزبور وبعضها من النبوءات ، وبعضها من المسيح ، وبعضها ممن بعده ، كالحواريين ومن بعد الحواريين ، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا لما غيروا دين المسيح في دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح .

وأما أمة محمد ﷺ فلم يكونوا قبله يقرأون كتاباً بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداوود ، والتوراة والانجيل ، والزبور إلا من جهته ، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به « قولوا آمنا بالله إلى قوله وهو السميع العليم[1][2] » .

(١) البقرة (٢) ملتقط من « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »

المحاضرة السادسة

مأثرة النبوة المحمدية

اهمية الانسان :

إن مصير العالم لم يزل ولا يزال مربوطاً بناصية الانسان ، وفيه سر سعادته وشقائه فاذا وجد الانسان الحقيقي وفقد كل ما يعتز بههذا العالم من ثروةوزينة وجمال ، لم يكن رزءاً كبيراً أو خسارة فادحة ، وكان وجود الإنسان الحقيقي خلفاً لكل فائت ، وعوضاً عن كل مفقود ، وسداً لكل عوز ، وأعاد الإنسان إلى العالم بنشاطه وحيويته وإنتاجه وعزيمته كل ما فقده هذا العالم ، أجمل وأكمل ، وأكثر وأوفر ، وإذا خير هذا العالم أو من يهمه أمره بين الإنسان من غير شيء وبين كل شيء من غيرالانسان، واستعمل عقله وما وهبه الله من قوة الرشدوالتمييز لكانت خيرته « الانسان » من غير شك ومن غير تردد ،

فالإنسان هو الذي خلق له هذا العالم وبسببه نال هذه القيمة والشرف .

ليس شقاء هذا العالم في فقد الآلات والوسائل ، إن شقاءه في سوء استعمالها وفي وضعها في غير محلها ، إن سبب كل نكبة نكب بها هذا العالم في تاريخه الطويل المليء بالأحداث ، هو ضلال الانسان وإنحرافه عن الجادة المستقيمة ، وعن فطرته السليمة ، أما القوى والوسائل فلم تكن إلا آلات صماء بريئة في يده تمتثل أمره وتنفذ رغباته ، وإذا كانت لها جناية فهي أنها ضمت إلى هذه النكبة سرعة في الوصول والانتشار ، وسعة في المساحة والامتداد .

اسرار الفطرة الانسانية وعجائبها :

إن هذا الكون الواسع مليء بالأسرار مليء بالعجائب ، وإن جماله ليبهر الألباب ، ويثير الدهشة والاستغراب ، ولكنه إذا قيس بأسرار الفطرة الإنسانية وعجائبها ، وكنوزها ودفائنها ، وإلى سعة القلب الانساني وبعد أغواره ، وإلى سمو الفكر الإنساني وسعة آفاقه ، وإلى لوعة الروح الإنسانية وقلقها ، إلى آماله البعيدة التي لا تكاد تنتهي ، وإلى طموحه الذي لا يشبع ولا يرضى بأعظم مقدار من الفتوح واللذات والخيرات والمسرات ، والملك والسيادة ، والنعيم والسعادة ، وإلى مواهبه

المتنوعة المتناقضة ، الواسعة الكثيرة التي لا تعد ولا تحد ، كان هذا الكون الواسع أمامه قطرة من بحر أو ذرة من صحراء ، وغاب في سعة القلب الانساني وأعماقه كما تغيب الحصاة الصغيرة في البحار العميقة الزاخرة ، إن الجبال تتضائل أمام إيمانه الواثق الراسخ ، وأن النار لتنطفىء وتحقر نفسها أمـــام حبه الولوع الوهاج ، وإن البحار لتخجل أمام دمعة طاهرة انحدرت من عين الإنسان خشية لله ، أو رحمة على ضعيف ، أو ندامة على تفريط ، إن الانسان إذا تجلى جمـال سيرته وحسن خلقه ورقة عاطفته أزرى بكل جمال في هذا العالم ، وبهر كل حسن في هذا الكون إنه واسطة العقـد وبيت القصيد ، وأعظم آية من آيات الخلاق المبدع الحكيم ، الذي خلقـــه في أجمل صورة وأكمل سيرة وأحسن تقويم .

الانسان فوق كل مساومة وتقويم :

إن العالم بما فيه من خزائن وكنوز ، وثروات وحكومات ، لا يستطيـع أن يقـــوم عقيدة الإنسان التي لا تعرف الشك والضعف . والحب الذي لا يعرف المادة والأشكال ، والعطف الذي لا يعرف الفوارق والحـدود ، والأخلاص الذي لا يعرف الأغراض والمنافع ، والأخلاق التي لا تعرف المساومـة وجزاء الشر بالشر ، والخدمة المخلصة التي لا تريـــد جزاءاً ولا شكوراً ، إن الإنسان إذا عرف نفسه وطلب قيمته عجز

العالم عن مساومته ، وإذا اتسع وأرخى لعزيمته وخواطره العنان ، وأرسل النفس على سجيتها ، ضاق هذا العالم وانضوى حتي أصبح قفصاً صغيراً لا هواء فيه ولا نور ، إنه لا تسبر أعماقه ، ولا يبلغ أغواره ، ولا يحاط باسراره ، ولا تكتنه حقيقته ولا تنفد عجائبه ، علمه وحلمه ، وكرمه ونبله ، ومحبته ورحمته ، وعطفه وإحسانه ، ورقة شعوره ودقة إحساسه ، وإيثاره وزهده واعتداده بكرامته ، ونفيه لذاته واستعداده القريب لمعرفة ربه ، والتفاني في سبيل مرضاته ، وفي سعادة بني نوعه ، وتلقيه لكل علم دقيق عميق ، ولكل علم مفيد جديد ، كل ذلك مما تحار فيه الألباب ويقصر عنه ذكاء الأذكياء .

مأثرة النبوة المحمدية :

إن وجود هذا الإنسان مفتاح كل سعادة وخير ، وحل كل أزمة ومشكلة ، وإن تقويمه إذا زاغ وتهذيبه إذا فسد ، وتكثيره إذا عز وندر ، وإعادته إذا ضاع وفقد . موضوع كل نبوة ، ومهمة كل نبي في عصره ، وإن وجود هؤلاء الأفراد بهذه الكثرة وبهذا الانتشار وفي صورة أتم لم يسمع بمثلها في التاريخ ولم تقع عليها عين السماء ولم تطلع عليها الشمس ، وإن انخراطهم في سلك واحد ، واجتماعهم في شمل واحد ، ثم تعاونهم الوثيق على مبدأ واحد ، وهدف واحد ، مأثرة النبوة المحمدية ومعجزتها الكبرى .

إن محمداً ﷺ بدأ عمل تكوين الأفراد وتهذيب الانسان من مستوى لم يبدأ نبي أو مصلح عمله منه ولم يكلف به ، لأنه وجد مستوى أرفع منه بكثير ، وبلغ ﷺ بهذا العمل إلى مستوى لم يبلغ عمل نبي إليه ، بدأ من مستوى تنتهي هنالك الحيوانية وتبتديء منه الانسانية ، وبلغ به إلى مستوى هو منتهى الانسانية ، ولا منزلة فوقه إلا النبوة ، وقد ختمت بمحمد ﷺ .

واقع أجمل من الخيال والشعر :

إن كل فرد من هؤلاء الأفراد معجزة مستقلة وآية من آيات النبوة ، ومأثرة من مآثرها الخالدة ، وبرهان ساطع على أشرفية النوع الإنساني ، إن مصوراً لم يصور بريشته البارعة ومخيلته السخية صورة أجمل وأبدع من ما كان عليه هؤلاء الأفراد في عالم الحقيقة والواقع ، وفي شهادة التاريخ، وإن شاعراً لم يتخيل بخياله الخصيب وقريحته الفياضة ومقدرته الشعرية ، أوصافاً أجمل وسيرة أعطر ، وجمالاً أكمل ، مما وجد في هؤلاء الأفراد ، ولو اجتمع أدباء العالم في صعيد واحد فعرضوا نموذجاً إنسانياً رفيعاً لم يصل بهم الخيال إلى ما وصل إليه الواقع في حياة هؤلاء الأفراد ، الذين نشأوا في حجر النبوة وحضانتها ، وتخرجوا في مدرستها ، إن إيمانهم الراسخ ، وعلمهم العميق ، وقلبهم البار ، وحياتهم البعيدة عن كل تكلف وصناعة، وعن كل رياء ونفاق،

وتجردهم من الأنانية ، وخشيتهم لله وعفتهم ونزاهتهم وعطفهم على الإنسان ، ورقة مشاعرهم وشجاعتهم وجلادتهم ، وحرصهم على العبـــادة ، وحنينهم إلى الشهادة ، وفروسيتهم وفنونهم وإحياءهم الليل ، وزهدهم في حطام الدنيا وزخارف الحياة ، وعدلهم وسهرهم على مصالح الرعية وإيثار راحتها على راحتهم ، كل ذلك لا يوجد له نظير في الأمم ولا سوالف في التاريخ .

الفرد الصالح في مختلف مظاهره ومجالات الحياة :

أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله ، الخائف من عقاب الله ، الخاشع الأمين ، المؤثر للآخرة على الدنيا ، المستهين بالمادة ، المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية ، يؤمن بأن الدنيا خلقت له وأنه خلق للآخرة ، فإذا كان هـــذا الفرد تاجراً فهو التاجر الصدوق الأمين ، وإذا كان فقيراً فهو الرجل الشريف الكادح ، وإذا كان عاملاً فهو العامل المجتهد الناصح ، وإذا كان غنياً فهو الغني السخي المواسي ، وإذا كان قاضياً فهو القاضي العادل الفهم ، وإذا كان والياً فهو الوالي المخلص الأمين ، وإذا كان سيداً رئيساً فهو الرئيس المتواضع الرحيم ، وإذا كان خادماً أو أجيراً ، فهو الرجل القوي الأمين ، وإذا كان أميناً للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم .

اللبنات التي قام عليها المجتمع الاسلامي :

وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الاسلامي وتأسست الحكومة

الاسلامية في دورها ، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم ، فكان المجتمع مجتمعاً صالحاً أميناً مؤثراً للآخرة على الدنيا ، متغلباً على المادة غير محكوم لها ، انتقل إليه صدق التاجر وأمانته ، وتعفف الفقير وكدحه ، واجتهاد العامل ونصحه ، وسخاوة الغني ومواساته ، وعدل القاضي وحكمته ، وإخلاص الوالي وأمانته ، وتواضع الرئيس ورحمته ، وقوة الخادم ، وحراسة الخازن ، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة مؤثرة للمبادىء على المنافع ، والهداية على الجباية ، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة ، كلها إيمان وعمل صالح ، وصدق وإخلاص ، وجد واجتهاد ، وعدل في الأخذ والعطاء ، وإنصاف مع النفس والغير [١] » .

نجاح هذا الفرد في المحن والتجارب :

إن هذا الفرد قد نجح في كل اختبار ومحنة تظهر مواطن الضعف ، وتبرز كوامن النفس ، وبرز فيها كالإبريز الخالص والتبر المسبوك ، لا غش فيه ولا زيف ، وأبرز في كل موقف دقيق محرج من قوة الإيمان وقوة الإرادة وقوة النفس وتأثير التربية النبوية ، ومن رقة العاطفة ومن دقة الشعور بالمسؤولية

(١) من رسالة « من غار حراء » للمؤلف .

ومن المستوى الرفيع للأمانة والزهادة والإيثار ، ما لم يتوقعه علماء النفس والأخلاق ، ومن جربوا الإنسان وكتبوا تاريخه في العصور والأزمان المختلفة .

وكان من أدق هذه المواقف موقف الأمير والحاكم الذي ليس مسؤولاً أمام أحد ، ولا تراقبه عين ، ولا تناقشه محكمة أو لجنة ، يزهد في ما أبيح له وفي خاصة ماله ، وفي النزر اليسير التافه الذي أباحته الشريعة وجرى به العرف ، واستهان به الناس في كل زمان .

زهد الولاة وتقشفهم في الحياة :

ومن أروع الأمثلة لذلك أن امرأة أبي بكر الصديق خليفة المسلمين اشتهت حلواً واستفضلت من نفقتها من عدة أيام ما تشتريه به ، فلما علم ذلك رد الدريهمات إلى بيت المال وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل منها لثمن الحلوى ، لأنه ليس من الحاجات التي يعيش عليها الإنسان وليس بيت مال المسلمين لتترفه به أسرة الحاكم وتتوسع به في المطاعم .

وهنا تصوير أمين لموكب الخلافة ، وحكاية رحلة رسمية في مصلحة حكومية لحاكم من أقوى الحكام في ذلك العصر ، ومن أوسعهم مملكة ، والذي كان اسمه يخلع القلوب ويرجف البوادر

من بعيد ، ونترك المؤرخ يحكي هذه الرحلة العجيبة ويصورها بقلمه البليغ .

« قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيليا على جمل أوراق ، تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرجل بلا ركاب ، وطاؤه كساء انبجاني ذو صوف ، هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبته نمرة أو شملة محشوة ليفا ، هي حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرق جنبه ، فقال أدعوا لي رأس القوم فدعوا له الجلومس فقال اغسلوا قميصي وخيطوه وأعيروا لي ثوباً أو قميصاً ، فأتى بقميص كتان فقال ما هذا ؟ قالوا كتان ، قال وما الكتان ؟ فأخبروه فنزع قميصه فغسل ورقع وأتى به ، فنزع قميصهم ولبس قميصه ، فقال له الجلومس أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئاً غير هذا وركبت برذوناً لكان ذلك أعظم في أعين الروم ، فقال نحن قوم أعزنا الله بالاسلام فلا نطلب لغير الله بديلًا ، فأتى ببرذون فطرح عليه قطيفته بلا سرج ولا رحل ، فركبه بها فقال احبسوا احبسوا ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا فأتى بجمله فركبه [1] » .

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٩ ، ٦٠

وروى الطبري قال : « خرج عمر وخلف عليا رضي الله عنهما على المدينة وخرج معه بالصحابة وأغذوا السير واتخذ ايلة (على ساحل البحر الأحمر) طريقاً حتى إذا دنا منها تنحى عن الطريق، واتبعه غلامه فنزل فبال ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فرو مقلوب ، وأعطى غلامه مركبه ، فلما تلقاه أوائل الناس ، قالوا أين أمير المؤمنين ؟ قال أمامكم ! (يعني نفسه) فذهبوا إلى أمامهم فجاوزوه ، حتى انتهى هو إلى ايلة، فنزلها وقيل للمتلقين: قد دخل أمير المؤمنين ايلة ونزلها فرجعوا إليه [1] » .

نموذج انساني رائع :

إن هذه الملامح والقسمات الجميلة الرائعة من زهد وتواضع ، وإيثار وعطف ومواساة ، وشجاعة وعدل ، وحكمة وصدق ، منتشرة في وصف الخلفاء الراشدين وأصحاب رسول الله ﷺ ، لو جمعها مؤرخ أو أديب أو عالم من علماء النفس والأخلاق ، وكون منها شخصية واحدة أو صورة موحدة لكانت من أسمى السير البشرية ، ومن أجمل الصور الإنسانية في المصور الانساني الكبير ، وفي المعرض البشري التاريخي العالمي ، ولكننا إذا لم نجد مع الأسف وصفاً كاملاً شاملاً وتصويراً جامعاً لهذه الجماعة الفريدة التي أبرزتها للعالم تربية الرسول ﷺ وصحبته ، فإننا

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤

نجد وصفاً لبعض الشخصيات يتسم بالبلاغة وحسن التصوير ودقة التعبير ، وقد عرف العرب قديماً بإجادة الوصف ، وبلاغة التصوير ، وصدق التعبير ، وبهذا الوصف نستطيع أن نستعرض آثار التربية النبوية ومدى نجاحها وإبداعها ، ونرى نموذجاً رفيعاً لهذا الجيل الذي ظهرت فيه معجزة الرسول في أروع مظاهرها.

وهي صفة علي بن أبي طالب عم الرسول ورابع الخلفاء الراشدين ، الذي نشأ في بيت الرسول وفي حضانته وتربيته ، وهي قطعة تستحق أن تعتبر من أجمل القطع الأدبية العالمية الخالدة تأثيراً وتعبيراً وتصويراً ، قال ضرار بن ضمرة وقد طلب منه الخليفة معاوية بن سفيان رضي الله عنه أن يصف له علي بن أبي طالب الذي صحبه طويلاً وعرفه من قرب فقال :

« والله كان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ومن نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان — والله — كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن — والله — مع تقريبه لنا وقربه منا ، لا نكلمه هيبة ولا نبتديه ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، ولا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف

من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين وكأني أسمعه وهو يقول :

يا دنيا ! أبي تعرضت أم لي تشوفت ! هيهات هيهات غري غيري قد بتتك ثلاثاً لا رجعة فيك ! فعمرك قصير ، وعيشك حقير وخطرك كبير ! آه من قلة الزاد وبعد السفر ، ووحشة الطريق [1] !

الجيل الاسلامي الاول :

وبالجملة فقد كان هذا الجيل الذي أنشأته دعوة الرسول ﷺ. وأحكمته تربيته من أفضل الأجيال البشرية في تاريخ الإنسان كله ، وأجملها وأكملها وأجمعها للمحاسن الإنسانية ، وقد وصفه أحد أفراده ، عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ببلاغة نادرة وكلمات موجزة عميقة دقيقة ، زاخرة بالمعاني الكبيرة البعيدة المدى ، فقال « أبر الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه وإعزاز دينه [2] » .

وإذا قورن هذا الجيل بجيل آخر رجح عليه في المجموع

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي .
(٢) رواه الدارمي في مسنده .

وكانت مآخذه مما لا يخلو منه بشر ضئيلاً في جنب محاسنه ومظاهره العظيمة البشرية، وروائع الكمالات الخلقية التي يخلو عنها التاريخ الإنساني ، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية بليغاً ودقيقاً في قوله :

« وخيار هذه الأمة هم الصحابة فلم يكن في الأمة أعظم اجتماعاً على الهدى ودين الحق ، ولا أبعد عن التفرق والاختلاف منهم ، وكل ما يذكر عنهم مما فيه نقص فهذا إذا قيس إلى ما يوجد في غيرهم من الأمة كان قليلاً من كثير ، وإذا قيس ما يوجد في الأمة إلى ما يوجد في سائر الأمم كان قليلاً من كثير، وإنما يغلط من يغلط أنه ينظر إلى السواد القليل في الثوب الأبيض ، ولا ينظر إلى الثوب الأسود الذي فيه بياض وهذا من الجهل والظلم[1] » .

تأثير الرسالة المحمدية في الاجيال المتأخرة :

ولم يكن تأثير دعوة الرسول ﷺ وتعليماته وتأثير المثل العالية التي عرضها في سيرته وسيرة أصحابه ، وطالب بها أتباعه من بعده ، لم يكن تأثير شخصيته التي ظلت ولا تزال المثل الكامل والنبراس المضيء المرشد الدائم لجميع الأجيال في جميع الأحوال، قاصراً على العهد الذي بعث فيه والجيل الذي أدركه

(١) منهاج السنة ج ٣ ص ٣٢٤ .

وسعد بصحبته ، إنما كان الشمس التي تونع في نورها وحرها الزرع والأشجار في جميع الأعصار والأمصار ، وترسل أشعتها وخطوطها الذهبية الحافلة بالقوة والحيوية من مكانها العالي ، فينتفع بها القاصي والداني ، لأن دعوته إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، واستحضار رقابة الله والخوف من سخطه وعقابه ، والطمع في أجره وثوابه ، والأشفاق من النار ، والحنين إلى الجنة ، وسيرته ﷺ في الزهد في حطام الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، والشظف في العيش ، وإيثار الناس على نفسه وأسرته وعشيرته ، في ما يرفعهم ويعينهم ، وكلما كان الرجل أبعد كان في الإيثار أحق وأقرب ، وكلما كان أقرب كان في المنافع واللذائذ أبعد ، وفي الجهاد والمشقة والتضحية أقرب ، وكان أخذه بمكارم الأخلاق والأحاسيس الدقيقة الرقيقة التي لا يتخيلها الأذكياء ، ولا يخطر من علماء النفس والأخلاق على بال ، كان كل ذلك مدرسة جامعة عالمية خالدة ، ينسب إليها ويلتحق بها أجيال بعد أجيال ، ويتخرج فيها علماء وزعماء وملوك وحكام وعباد وزهاد ، كلهم تلقوا فيها دروس الأخلاق والإنسانية الأولية ثم فاقوا فيها ، وبذوا العالم والأمم في سمو أخلاقهم ولطافة حسهم ورقة شعورهم ، ودقة أمانتهم ، وكثرة زهادتهم ، على تملكهم لأسباب البذخ والترف ، ومفاتيح الخزائن وأزمة الدول ، ومصير الشعوب والأمم ، يخضع لهذا التأثير أفراد يتفاوت بهم الزمان ويبعد بهم المكان ، ولكنهم زرع الإيمان ، وغرس

النبوة، وثمرة الدعوة الإسلامية، ومأثرة نبوة محمد ﷺ وإنتاجها. وكل حسن في سيرتهم وأخلاقهم مقتبس من مشكاة النبوة المحمدية العالمية، لامنة لآبائهم وبيئتهم وثقافتهم وذكائهم على هؤلاء الأفراد في هذه العقيدة، وفي هذه السيرة، وفي هذه الأخلاق، فلولا دعوة رسول الله ﷺ وتعليماته ولولا حبهم العميق له وخضوعهم لتأثير سيرته ولولا فضل الإسلام لكانوا في العقيدة عباد الأصنام، وفي الأخلاق أشبه بالسباع والأنعام، لا توحيد ولا تقوى، ولا زهد ولا إيثار، ولا رقة عاطفة ولا كرم خلق.

بعض تلاميذ المدرسة المحمدية العالمية الخالدة وأمثلة من حياتهم وأخلاقهم :

وخذوا أحد تلاميذ هذه المدرسة وخريجها، ومما غرسته النبوة المحمدية بعيداً عن مهد الإسلام، وعن جزيرة العرب، بعيداً عن عهد الرسالة والصحابة، بعيداً عن الأصل المضري، والدم العربي، وهو السلطان صلاح الدين بن أيوب الكردي العجمي في القرن السادس الهجري[1] يقول عنه صديقه ورفيقه ابن شداد :

إنه ملك ما ملك ومات ولم يوجد في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهماً ناصرية، ومن الذهب إلا جرام واحد صوري، ما علمت وزنه.

---

(١) توفي صلاح الدين عام ٥٨٩ هـ

ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ولم يكن في الخزانة ما يعطي الوفود فلم أزل أخاطبه في معناهم حتى باع أشياء من بيت المال ، وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل درهم واحد .

وكان رحمه الله يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم مهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه ، وسمعته يقول في معرض حديث جرى ، يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب ، فكأنه أراد بذلك نفسه رحمه الله تعالى ، وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب ، فما سمعته يقول أعطينا لفلان[1] .

ولما مات هذا السلطان العظيم الذي كان يحكم من حدود الشام الشمالية إلى صحراء النوبة في الجنوب ، لم توجد في خزانته ما يكفنونه به وينفقون على تجهيزه يقول ابن شداد :

« ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه ، فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض، حتى في ثمن التبن الذي

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ص ١٣ ، ١٤

بلت به الطين ، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط وكان ذلك وجميع مـا احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضر القاضي الفاضل من وجه حل عرفه[1].

ويتحدث مؤرخه الانجليزي الشهير (Stanley Lanpool) في كتابه المشهور (صلاح الدين) فيقول :

إذا لم يتيسر للعالم أن يعرف شيئاً عن صلاح الدين غير ذلك الكرم وتلك السماحة التي عامل بها أهل القدس المسيحيين الأعداء حين فتحه ورده للإسلام كان ذلك كافياً ليثبت أنه لم يكن أعظم رجل في عصره فحسب في علو الهمة وفي العظمة والشهامة والفتوة، بل كان أعظم رجل في هذا الشأن في كل عصر وزمان[2].

ولم يزل هـذا التأثير قوياً سخياً بعيد المدى واسع الأرجاء والآفاق ، يصنـع عجائبه ويظهر روائعه في بلاد تقع في أقصى العالم الإسلامي ، وفي شعوب حديثة العهد بالإسلام ، وفي رجال لا يتصلون بدعاة الإسلام الأولين في نسب أو لغة أو ثقافـة ، يسلم أحدهم على يد داعية إسلامي ، أو مرشد روحاني وينشأ في أولاده واحفاده الأقربين ملك في صورة ملك وزاهد فقير في لباس ملك، خشية وتقوى ، وعدل وقسط ، وعطف ومواساة،

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ص ٣٥١ .
(٢) أيضاً ص ٢٠٥ .

ورحمة وبر ، واحتساب ونية ، وصدق وإخلاص ، لا توجد أمثلته في زهاد الأمم الأخرى وأحبارها ورهبانها فضلاً عن ملوكها وسلاطينها، وأقتصر هنا في تاريخ الهند الإسلامي الطويل الزاهي بهذه النماذج الرفيعة ، على قصة واحدة لا تبلى جدتها وطرافتها ، ولا تنتهي روعتها على مر الأيام وكثرة الإعادة والتكرار .

كان بين السلطان مظفر الحليم ملك كجرات (م ٩٣٢ هـ) وبين معاصره السلطان محمود الخلجي ملك ماندو منافسة قديمة ، وقد كان الخلجي معتدياً مهاجماً دائماً يزحف بجيوشه على مملكة كجرات الإسلامية ، التي يحكمها مظفر الحليم ، ويضطر الحليم الى الدفاع عن ملكه ورد الغارة عليه ، حتى حدث ما غير الوضع وجعل من الملك المعتدي المدل بقوته وأبهته طريداً لاجئاً يطلب من عدوه الكريم النفس الغوث والنجدة ، فقد استولى على ملكه الواسع الجميل وزيره الوثني مندلي رأي واغتصب بلاده ، ولم يجد السلطان محمود ملجأ إلا في عطف عدوه القديم مظفر الحليم وفي حميته الإسلامية ، فلقي منه من البر والكرم وحسن الإجابة وسرعة الإغاثة ما لا يصدر إلا عن رجل لا تأخذه حمية الجاهلية ولا يؤمن بالفلسفة المادية « الانتهازية » فلم يستغل هذا الوضع ولم يشمت بالعدو والسليب الضعيف ، بل انتهز هذه الفرصة

لإرضاء الله وحده ولإخزاء الشيطان ، فتقدم بجيوشه الكثيفة المنصورة إلى مندو ، واهتم بقضيتها كقضية بلاده بل أكثر ، وجازف بحكومته وحرية بلاده في سبيل المحافظة على حرية بلد إسلامي منافس ، وإعادة الإسلام إلى مركزه واعتباره في هذه الدولة ، وتقدمت القوات البرهمية والأمارات الوثنية إلى إغاثة صديقها مندو ، ووقعت حرب طاحنة مجنونة كثر فيها القتلى ، وسالت الأزقة بالدماء الغزيرة ، حتى استولى مظفر الحليم على البلاد وهزم العدو هزيمة منكرة ، وأحرقت الأميرات الوثنيات والحرم الملكي أنفسهن على عادة ملوك راجبوت ، وعادت البلاد إلى الإسلام .

وهنا تجلى النبل الإنساني والخلق الإسلامي في أروع مظاهره ، فقد أشار أهل الرأي من قادة الجيش على الملك المظفر المنصور أن يحتفظ بهذه البلاد الجميلة الغنية الزاهية ، لقصورها البديعة التي لا يوجد لها نظير في الهند ، وقلاعها الحصينة وخزائنها الحافلة وخيراتها الدارة ، وقد ذهبت ضحية سفاهة الملك الراعن الضعيف ، وقد فتحها الملك فتحاً جديداً واسترقها فاستحقها ، والملك للقوة والغلبة ، والبلاد للمنتصر .

ولما سمع الملك هذا الرأي وعرف ما تحدث به القادة نفوسهم ، أرسل إلى السلطان يأمره بأن لا يأذن لأحد في

جيشه في دخول البلد، وسأله السلطان البقاء في القلعة، والاستجمام فيها مدة من الزمان ، فلم يقبل وأمر جيوشه بالانصراف إلى أحمد آباد والعودة إلى ثكناتها ، وقال للخلجي إنني لم أتقدم إلى هذه البلاد إلا لرضا الله تعالى وحده وطمعاً في ثوابه وعملا بقوله « وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر[1] » والمسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله[2] وقد تحقق ذلك وبيض الله وجهي ووجهك وبيض وجه الإسلام ، وقد سمعت من أصحابي ما لو عملت به لحبط عملي وضاع جهادي ، والفضل لك ليس لي ، فقد أكرمتني وكنت سبباً في هذه السعادة ، وأنا قافل إلى بلادي لا أريد أن أحبط عملي وأخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .
وهنا تحرك الجيش المنصور اللجب ، ورفع الفرسان أعنة خيلهم وانصرفوا راشدين .

وبعد أن فتح المظفر « مندو » ودخل محمود في البلد عزيزاً مكرماً، أخذ صديقه المظفر لينتزه ويطلع على ما في هذا البلد من خيرات وخزائن وجواهر وتحف، فكان الأمر عجيباً وكان البلد آية في الجمال والخصب والثروة وكثرة الترف وكثرة الجوارى الحسان والفتيات البارعات في الجمال ، والسلطان مظفر مطرق رأسه غاض بصره لا ينظر لا إلى هذا المال ولا إلى هذا الجمال،

---

(١) الانفال ٧٢ (٢) معنى الحديث

فقال له محمود وهو يمر بصديقه امـــام الاميرات والحشم وبين الزوجات والحرم ، وهن يستقبلن الفاتح المحسن ويحيينه بثغور بواسم: مالك يا سيدي لا ترفع رأسك ولا تنظر إلى هذا المنظر !؟ فقال المظفر إنه لا يحل لي يا محمود وقد قال الله « قال للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » فقال الملك الذكي إنهن إمائي وأنا عبدك قد أسرتني وملكتني بإحسانك فهم عبيد وهن إماء لك مرتين ، ولكن مظفر لم يقتنع بهذا الجواب اللبق وعرف أن ما حرمه الله لا يحله أحد .

وهكذا أثبت الملك الورع كرم نفسه وعفة باطنه وروحه، وشدة خضوعه لتأثير الإسلام ولتأثير المثل العليا الاسلامية التي نشأ على حبها والتمسك بها في حياته .

إنه رجل يغيب نسبه الإسلامي بعد واسطتين أو ثلاث في دياجير الكفر والجاهلية الهندية ، ويفقد المؤرخ النسابة الأسماء الإسلامية بعد جده الذي أسلم في أيام فيروز تغلق في القرن الثامن الهجري ، وتفاجئه أسماء عجمية هندية ، لا يعرف أصلها ولا يفهم معناها ، فلم يتعلم مظفر هذا النبل وهذا الورع إلا في مدرسة محمد ﷺ التي دخلها مخلصاً جاداً مقدراً للإسلام نعمته ، ولمحمد ﷺ فضله ورفده ، مقبلاً على هذا الدين بشغف وإجلال، كارهاً للدين الذي كان عليه آباؤه وأبناء قبيلته وأسرته .

انتاج هذه المدرسة المباركة الدائم في كل الأمم وفي جميع العصور :

وكم لهذه المدرسة المبـاركة المنجبة المنتجة من أبناء كرام بررة في بلاد الشرق والغرب ، وفي بـــلاد العرب والعجم ، وفي قرون متقـــدمة ومتوسطة ومتأخرة ، وكم لهؤلاء الأبناء البارين العظماء من مآثر وبطولات ومحامد ومكارم في كل ناحية من نواحي الحياة الإنسانية ،وقد تجلى تأثير تربيتها وفضل مؤسسها في فتوة طارق ، وشهامة محمد بن القاسم ، وهمة موسى بن نصير ، وذكاء أبي حنيفة والشافعي ، وصلابة مالك وأحمد بن حنبل ، وكرم نور الدين ، وعزم صلاح الدين ، وعبقرية الغزالي ، وروحانية عبد القادر الجيلاني ، وتأثير ابن الجوزي ، وطموح محمد الفاتح ، ومغامرات محمود الغزنوي ، ورقـــة عاطفة نظام الدين الدهلوي ، وسماحة فيروز شاه الخلجي ، وتبحر ابن تيمية الحراني ، وحسن إدارة شير شاه السوري ، وقوة إرادة أورنك زيب التيموري ، وفي معـارف شرف الدين يحيى المنيري ، وحقائق أحمد بن عبد الأحد السرهندي ،ودعوة محمد عبد الوهاب التيمي ، وحكمة أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، ومن جـاء بعدهم من الدعاة والمصلحين والعلماء الربانيين ، وإن الفضل في كل هذه العبقرية وفي مآثرهم العلمية والعملية الخالدة يرجع إلى تعليمات هذه المدرسة وتربيتها ، وإلى العهد الزاهر الجديد الذي

افتتح ببعثة محمـــد ﷺ ، ووجدت فيه المواهب الإنسانية الفائقة سبيلها ومجال نشاطها ، ووجد من يستخدمها وينتفع بها، ولا تزال هذه المدرسة – مهما قسا عليها الزمان وتنكر لها المتنكرون – تنجب أفذاذاً في التـاريخ وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وتغيث الإنسانية بقـــادة مخلصين ، وعلماء ربانيين « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومـة لائم » ولسان الغيب يهتف : « فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين » .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

المحاضرة الثانية

سمات النبوة وخصائص الانبياء

الموضوع	الصفحة

المحاضرة الثالثة

أئمة الهدى وقادة الانسانية

الموضوع	الصفحة

المحاضرة الرابعة

بين الارادة الالهية والاسباب المادية

الموضوع | الصفحة

المحاضرة السادسة

مأثرة النبوة المحمدية